بَنْدَر شَاه

ضَوْ البَيْت

الطيّب صالح

بَنْدَر شَاه

ضَوْ البَيْت

أُحْدُوثَة عَن كَون الأبْ ضَحِيَّة لأبيهِ وابنه

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

الإهداء

إلى أبويَّ،

محمد وعائشة

وإلى أخويَّ،

علويَّة وبشير

الدرب انْشَحَطْ، واللّوسْ جبالُه اَتّناطَنْ
والبندزْ فوانيسُه الْبِيُوقْدَن، ماتَنْ،
بَتُوتْ هَضَالِيمَ الخَلاَ الْبنجاطَنْ،
أسرع، قودغ، امْسِيتْ، والمواعيد فاتَنْ

شاعر سوداني مجهول

ألا، لا أرى مثلي أمْتَرى اليَوم في رَسمِ،
تفصُّ به عيْني وينكرهُ وهْمي،
أتت صورَ الأشياءِ بيني وبينه،
فجهلي كلاَ جهلٍ، وعلْمي كلا علم

أبو نواس

في حضرة من أهوى عبثت بي الأشواق
حدقتُ بلا وجه ورقصت بلا ساق
وزحمت براياتي وطبولي الآفاق
عشقي يفني عشقي وفنائي استغراق
مملوكك لكني سلطان العشاق

الفيتوري

كان محجوب مثل نمر هرم، جالساً جلسته القديمة رغم السنين والعلة، أبداً كأنه يتحفز للوثوب، معتمداً بيديه على عصاه، وذقنه على يديه، متلفِّعاً ثوبه على رأسه فوق العمامة. عمقت الأخاديد التي على خديه عند الفم، والتجاعيد على الجبهة، وفي العينين تحولت تلك الحدة مع مرور الأيام، وذكريات المعارك والهزائم ولا شك، إلى حمرة عليلة. لم يعد في العينين إلا الغضب. كنا أمام دكان سعيد، والليل يزحف حثيثاً على ود حامد. قال محجوب موجهاً كلامه إلى الرمل عند مُنْغَرَسِ عصاه:

«غِيْبَتَكْ طالَت من البلد».

أطرقت أفكر. ماذا أقول في مثل تلك الظروف والأحوال؟ نعم، سنوات.

قلت لمحجوب: «الحركة والسكون بيد الله».

ضحك الطاهر ود الروّاسي كما كان ود الروّاسي يضحك تلك الأيام، وقال من مكانه المعتم على بقعة الرمل، بمنأى عن ضوء المصباح:

«شِنْ[1] يَسوِّي في البلد الفَقْرْ دِي. أَخْير[2] لُه هناك في مَحَلّه».

عبد الحفيظ كان أكثرهم تسامحاً من قبل، أيام كان يستطيع أن ينظر من جانبين. أما الآن، وقد حدد لنفسه موقفاً، فلم يكن غريباً أن يقول بصوت خالٍ من الود، فيه إيحاءات الشجار:

«محله وين؟ محله هنا. إن طال وإن قصر يا هو دا محله».

قلت، وأنا أحاول عبثاً أن أعيد الزمن إلى سابق عهده:

«على أي حال، هنا ولاّ هناك العمر ما فَضَلْ فيه غير أيام».

(١) ماذا.

(٢) أفضل.

وكأنما سمع ود الرواسي الاستغاثة فقال:

«يا زول[1]. طيب نحن شِنْ نُقُول؟».

وظل محجوب معتمداً بيديه على عصاه، وذقنه على يديه.

لم يكن حمد ود الريس موجوداً، ولا كان أحمد أبو البنات. وظل سعيد في دكانه يفرغ أشياء من صناديق ويضعها على الرفوف، ومعه حفيد له يعاونه. من جوف الدكان قال سعيد شيئاً فهمه الطاهر الروّاسي وضحك له، بينما الليل يجمع أطرافه ويتكثف ويمحو معالم البلد، مَحوكَ كتابة بالطباشير على سَبُّوره.

انتبهت فجأة لصوت المؤذن «حي على الصلاة حي على الفلاح». كان صوتاً أخرق ضعيفاً فاقد الرنين. سألت عنه، فقال عبدالحفيظ «سعيد». أيضاً لم أميزه، فقال محجوب ساخراً «سعيد عَشَا البَايْتَاتْ» وقال ود الروّاسي «ما تقولْ لُه سعيد البوم. شن عرفه بي عشا البايتات؟».

---

(١) رجل.

قلت «سعيد البوم أصبح سعيد عشا البايتات؟».

ضحك محجوب، لا كما كان يضحك تلك الأيام، وقال:

«ولِسَّع يامَا تسْمع وتْشُوفْ».

هنا خرج سعيد من دكانه يحمل علبة سجائر، عرضها علينا وقبلنا ما عدا محجوب، وقال:

«ما دام عبدالكريم ود أحمد بقى متصوف، والزين أصبح من الأعيان، وسيف الدين على وشك يعمل نائب في البرلمان، إيه الغريب سعيد البوم يكون اسمه سعيد عشا البايتات؟».

وقلت «عجايب» وأضاف سعيد الذي كان يلقب بالقانوني في الزمن السابق:

«يا زول. انت عاوز حصه طويله عَلى شانْ نفهمك النظام الجديد في البلد. إنت فاكِرْ ود حامد هِيَّ ود حامد الْ إنتْ عارفها؟».

لا. لم أكن أظن ذلك. ولكنني لم أتوقع أن يصبح سعيد البوم مؤذناً. قلت لهم:

«سيف الدين حصل عليه شنو؟ ارتدَّ تاني ولاَّ إيه؟».

وقال سعيد:

«انت لسّع في أيام سيف الدين؟ يمكن زياده عن ستة مؤذنين اتقلّدوا المنصب بعد سيف الدين. دلْوقتي يا سيدي نحن في عهد سعيد عشا البايتات».

وقال الطاهر الروّاسي:

«سيف الدين من زمان ترك الإمام. بقى زي ما تقول بَيْنَ بيْنَ. رِجلٌ في الجنة ورجل في النار».

وقال سعيد:

«مثل ناسْ الزمن كلهم. الزمن دا الناس كلهم بقوا بين بين».

وسمعت محجوب يكركر مثل البعير بغيظ، وقال الطاهر:

«وانت يا أبو القوانين؟ بقيت مع ناس الزمن، ولاَّ صالِدْ زيْ محجوب النامر؟».

صمت سعيد كأن تذكيره بلقبه القديم قد فاجأه، ثم قال

بين الضاحك والغاضب:

«القوانين الله يطْري زمانها بالخير. دلوقت أولاد بكري يقولوا عليّ سعيد المشَوْشِرْ. الْ يبْحثُ عن حَقُّه الزمن ده يقولوا عليه مشوشر».

أضاف محجوب بالطريقة ذاتها:

«أولاد بكري إنْ شاء الله ما تتعَدِلْ عليهم شِقْ إيشْ ما قبْلُوا».

وسألتُ محجوب ماذا فعل أولاد بكري فقال:

«اسأل سعيد يقول لك».

كان عبدالحفيظ قد توضأ خلال هذا الحديث دون أن يشارك فيه، وهو يبتهل ويهمهم. ولما نادى المنادي للصلاة في صحن المسجد، قام مهرولاً قائلاً:

«نحصَّل الصلاة قَبُلْ ما تفوتْنا».

كأنني كنت أتوقع شيئاً لن يحدث، إذ أن محجوب أيضاً وقف معتمداً على عصاه، يتأوه ويتبرم. وقال:

«أنا كمان أقوم لي أهلي. اللِّيل لَيِّلْ».

ونادى سعيد وراءهما:

«ماتحضروا معانا العشاء ولو على شان الرجل الضيف دا».

ذهب محجوب كأنه لم يسمع وقال عبدالحفيظ من بعيد:

«العشاء ملحوق. لكين[1] الصلاة مع الجماعة ما بتتلحِق».

جاء الطاهر الروّاسي وجلس بجواري على الكنبة، وظللنا وقتاً صامتين، وأنا أرهف السمع لأصوات الليل في ود حامد. ثغاء شياه وبقرة أو ثور يخور، وأصوات شجار، وصوت غناء في مذياع. فوج من صراخات تلتقي وتفترق، في مكان ما، في جهة ما، لا تدري هل هي أصوات مأتم أم عرس، لا تدري هل تجيء من قبلي أم من بحري. ضوء سيارة يقترب ويتضح ويعلو ويفوت، مكنات الماء على الشاطئ، ووشوشة هواء الليل الرطب في جريد النخل. دكان

(١) لكن.

سعيد كحاله وبقعة الرمل كحالها والليل والنجوم. وقال الطاهر الروّاسي:

«مسكين محجوب كبر».

وقال سعيد من بطن الدكان:

«انت يا ود الرواسي مالك ما بتعجّز مع إنك أكبر مننا كلنا؟»

فقال الطاهر:

«عشان أنا قلبي ميت. ناس محجوب وانت قلوبكم حاره. الزمن دا الواحد يقيف بعيد يتفرج ويتعجب».

وخرج سعيد وجلس جوارنا على الكنبة. وقلت لسعيد:

«الدنيا كلها تكبر والكنبة دي في حالتها».

ضحك سعيد وقال:

«دا شغل ود البصير رحمة الله عليه. تقول حديد. شغل الزمن دا زي الورق».

وقال الطاهر:

«محجوب عنده مع حرارة القلب الأزمه. طلعت عينه».

وقال سعيد:

«والله يا خوي بقينا كلنا يا ساتر استر. إذا ما كان الأزمه يبقى وجع الكلى أو البطن أو المفاصل. غايته الله كريم».

وقال الطاهر:

«علشان ما بتسمعوا الكلام. زمان قلنا لكم عليكم بالحلبه والجنزبيل. الجنزبيل الصباح على الريق والحلبه قبل النوم. والعَجبْ كمان تشرب لك كباية سمنة كل يوم».

وقال سعيد:

«كله جربناه ما نفع. بلدي وافرنجي. حقن بنسلين على فيتامين. شربنا مية القَرَضْ والحَرْجَلْ وقرَشنا التوم والبصل. وآخر الزمن كمان ناس قالوا تسوِّي الحنَّة. وناس قالوا تقعد فوق دخان الطَّلح. يا زول. الكلام على صحة الجسم الأولانية».

وقال الطاهر:

«صدقت والله. ما في شيء زي النشاط. الجسم دا ياما

حملناه حمايل. يا زول. الواحد كان زي البغل. إن رفص الجبل يهِدُّه».

وساد صمت له طعم تلك الأيام، أيام كان الطاهر الرواسي ورفاقه، عصابة محجوب، يجلسون على بقعة الرمل تلك، أمام دكان سعيد، والطاهر الرواسي يتنهد ملء صدره، ويقول «روح يا زمان وتعال يا زمان».

تنهد الطاهر الرواسي الآن، بقدر ما استطاعت رئتا رجل جاوز السبعين وقال «وين تاني يا حاج سعيد نلقى مثل الأيامِ ديكْ؟».

وكان أحفاد سعيد قد فرشوا الأبسطة قبالة الدكان، وضعوا عليها سفرة كبيرة، قمنا ثلاثتنا وجلسنا إليها. لم يكد سعيد يرفع الغطاء عنها، حتى وصل عبدالحفيظ. جلس بيننا قائلاً:

«ما قلت لكم العشاء ملحوق؟».

قال له سعيد «الصلاة مقبولة يا حاج».

وقال عبدالحفيظ «الإمام عيان الليلة».

وقال الطاهر «مين أمّ الناس بدله؟».

فقال سعيد «الطاهر عامل متغابي. طبعاً النائب. وقت الإمام يغيب، منو اليئم الناس غيره؟».

قلت لعبد الحفيظ «لا بد نائب الإمام انت».

فقال عبدالحفيظ «سعيد وود الرواسي المسخرة ما يخلوها أبداً. الحكاية ما فيها رئيس ونائب وقت الإمام يغيب أيّا من كان يصلي بالناس».

فقال الطاهر:

«على أي حال الإمام ليه زمن متْعَلعِلْ. والصلاة نفسها زيْ كأنه ما لِيهُ فيها كبيرَ غرضْ. إيه رأيك يا حاج عبدالحفيظ تبقى إمام بالمَرَّة».

فقال عبدالحفيظ غاضباً:

«يا جماعة انتو أصبحتوا شُيَّبْ وعقولكم عقول أطفال؟ هُوَّ كَوْن الإنسان يبقى إمام لعبة؟ دا راجل عالم ومتفقّه في الدين. البلد كلها ما فيها إمام مثله. وقت الله يتوفاه، بعدين نشوف».

قال سعيد:

«والزعل لزومه شنو؟ الطاهر معاه حق. الحكاية مش صلاة العيدين وخطبة الجمعة وصلاة التراويح؟».

وأضاف ود الروّاسي:

«والحمد لله رب العالمين ولا الضالين آمين. وحتى خطبة الجمعة إياها الكلمتين. اللهم انصر المسلمين واحفظ أمير المؤمنين. وين أمير المؤمنين دا عاوزين نعرف؟».

فقال عبدالحفيظ:

«لا حول ولا قوة إلا بالله. انت يا ود الروّاسي إيش عرفك في خطب الإمام؟ طول عمرك لا اتوضيت ولا صليت. الجامع مِنْ الله خلقك ما دخلته ولا عَتَّبت على بابه».

فقال سعيد:

«يا عبدالحفيظ خاف الله. كيف ود الروّاسي ما شاف الجامع؟ هو في إنسان ساعد في بناء الجامع أكتر من ود الرّواسي؟»

فقال ود الرواسي موجهاً كلامه إليّ

«شايف يا محيميد؟ شايف ناس الزمن دا كيف بقوا

ينكروا الحق؟ والله صدق إبراهيم ود طه. يقول لي يا ود الرواسي اتجنَّب ناسْ الدُّقون والسِّبح. ما يجيك من وراهم إلا الشر. أنا يا عبدالحفيظ ما أعرف الجامع؟ في الحر والبرد مِنُو نقل الموية[1] والطوب؟ منو الوقف لحد ما السقف اترفع؟ منو اشتغل طول الليل وقت الرجال شخّرت؟ منو...؟ بس نقول شنو ونعيد شنو؟

فصاح عبدالحفيظ غاضباً:

«علشان جِنْس الكلام دا أنا بطّلت قعدةْ دكان سعيد. بالله وتالله لولا الراجل الضيف دا ما كنت جيت المجلس دا».

ونفض يده ووقف. فصاح به سعيد:

«يا أخي انت جَنِّيتْ والاَّ شنو؟ الحكاية وَنسَهْ. انتو عاوزين تَحْجروا الكلام على الناس؟ يا أخي الجامع ما تَراهُ واقف؟ في إنسان عاوز يبيعه ولاَّ يشتريه؟ الْ يصلي والْ ما يصلي كلهم اشتغلوا. والأجر والثواب عند الله. بسم الله الرحمن الرحيم. يا أخي انتو عاوزين تجيبوا الإسلام مِنْ أوّل وجديد؟».

---

(١) الماء.

قلت لعبد الحفيظ لا عليك اجلس ولكنه لم ينثن وقال:

«انتو ناس ربنا عَمَى بصيرتكم. جِنْس الكلام دا لا يُودِّي ولا يجيب. وقِلّته أخْير. سلام عليكم» ومضى.

***

إذا كان الأمر قد بدا لي كما حدثتكم في تلك الرحلة، فلعله يشفع لي أنني لم أتعمد تضليلكم. كان جدي كما ذكرت لكم. وكانت علاقتي بجدي تبدو لي في ذلك الوقت، وبعده بسنوات طويلة، كما ذكرت لكم في تلك الرحلة. ثم وقعت في البلد تلك الواقعة التي لا يحيط بها وصف. لا في رحلة واحدة ولا في رحلات عدة، ولا حتى في العمر بأسره. فجأة اختل ذلك التناسق في الكون. فإذا نحن بين عشية وضحاها لا ندري من نحن وما هو موضعنا في الزمان والمكان، وقد خيل إلينا يومها أن ما وقع قد وقع فجأة. ثم تكشف لنا رويداً رويداً ونحن في ذلك الخضم المتلاطم بين الشك واليقين، أن ما حدث كان مثل سقف البيت حين يسقط. لا يكون قد سقط فجأة ولكنه يظل يسقط منذ أن يوضع في محله أول مرة. بلى إننا جربنا شتى سبل المقاومة؛ قلنا إنما حدث شيء قائم بذاته، لا صلة له بما كان وما

سيكون، ظاهرة شاذة منعزلة كأن تلد العنز عجلاً أو تثمر النخلة برتقالاً. ثم عدنا فقلنا إن ما حدث لبندر شاه وأولاده هكذا، ولكنه ما كان ليحدث لنا لأننا لسنا مثل بندر شاه وأولاده. ويرد الناس بعضهم على بعض وهم يتشبثون بأوهى الأسباب، صدقتم، صدقتم،ويصمتون صمتاً قلقاً هشاً كما يهدأ الموجع برهة ثم تعود الفوضى حين يقول أحدهم:

«يا جماعة خافوا الله. كيف تقولون بندر شاه وأولاده ليسوا مثلنا. قسماً مثلنا وأحسن منا. كانوا والله زينة الرجال».

يعاودنا الخوف الدفين، لأننا نعلم أن هذا هو الحق. كان بندر شاه حين يحضر إلى عرس أو إلى مأتم يحيط به أبناؤه الأحد عشر وحفيده مريود، ترقى إليهم الأبصار وتهفو لهم الخواطر لأنهم كانوا ملء السمع والبصر، زينة الرجال في البلد.

يقول أحدنا في حسرة:

«يا جماعة. بندر شاه كأنه فتحت له ليلة القدر. محل ما يضع رجله يلقى فايدة. محصول التمر العام دا بطال مع كل إنسان إلا مع بندر شاه».

وفي الحال يرتفع أكثر من صوت يقول للمعترض «يا فلان استغفر الله، كمان بقينا نحسد بندر شاه؟ هل أنت أو نحن نبذل ربع الجهد الذي يبذله بندر شاه وأولاده؟».

وما يلبث فلان المعترض أن يراجع نفسه ويقول:

«والله صدقتو يا جماعة. بندر شاه وأولاده ما هم مثلنا. ديل ناس ربنا راضي عنهم. كل خير يجيهم حلال عليهم».

ولم يكن عجبنا ينتهي من التشابه الغريب بين بندر شاه وحفيده مريود، فقد كان الحفيد في هيأته وسلوكه مطابقاً تماماً لجده، كأنما الصانع العظيم صنعهما في وقت واحد من طينة واحدة، وقدم لأهل البلد بندر شاه، ثم بعد خمسين أو ستين عاماً قدم لهم بندر شاه مرة أخرى على هيئة مريود. تخيل توأمين تأخر وصول أحدهما عن الآخر خمسين أو ستين عاماً. القامة والوجه والصوت، والضحكة، العينان، نصوع الأسنان، نتوء الذقن، القومة والقعدة وطريقة المشي. وحين يصافحانك ينصبان على يدك بالجسم كله، وينظران إليك، لا كما ينظر بقية الناس وجهاً قبالة وجه، بل من جانب الوجه نظرة ودودة ولكنها متمعنة متفحصة. وحيث تقف بينهما تحس كأنك تقف بين مرآتين وضعت إحداهما قبالة الأخرى، كل

واحدة منهما تعكس الصورة نفسها في امتداد لا نهائي.

كان مريود هو وكيل الجد ونائبه وقائم مقامه. أذكر أنني دهشت دهشة عظيمة أول مرة رأيت ذلك. كان مريود يكبرني بعام أو نحو عام، ولم يكن سنه يزيد عن الخامسة عشرة حينئذ. جاء إلى جدي وقت الضحى وعند جدي مختار ود حسب الرسول،وحمد ود حليمة، وأنا، منزو في ركن كعادتي لا أتكلم إلا إذا سئلت، وإذا تكلمت لم أزد على جملة أو جملتين. دخل مريود وسلم عليهم ينادي كلاً منهم باسمه المجرد، لا عمي فلان أو جدي فلان. ثم جلس دون أن يؤذن له بالجلوس قبالة جدي. لم يكن وقحاً.. لا.. ولكنه كان واثقاً من نفسه ثقة تقرب من الوقاحة.. لم يضيع أي وقت في المجاملات، ودخل في موضوعه مباشرة متجاهلاً الرجلين الآخرين:

«بندر شاه يقول إنه اشترى العجل منك».

فقال جدي:

«بندر شاه يشتري ولاّ ما يشتري هو حر. لكن أنا ما بعت».

فقال مريود ضاحكاً:

«إذا كان بندر شاه اشترى منك لا بد أنك بعت».

فقال جدي:

«جدك عرض اتناشر وأنا طالب سبعتاشر».

لم يقل مريود شيئاً ولكنه أخرج من جيبه رزمة جنيهات مدها لجدي، فأخذها هذا دون أن يعدها ولكنه أبقاها برهة في راحة يده كأنه يزنها ثم قال:

«العجل مربوط في المراح، امش خذه».

فقال مريود ضاحكاً وهو يتأهب للخروج:

«العجل أناسقته مع شروق الشمس. لحمه دلوقت فوق النار ويمكن يكونوا أكلوه كمان».

ولما خرج قلت لجدي «كم دفع؟».

فقال جدي «انتاشر».

أخذت الأوراق وعددتها فإذا هي بالفعل إثنا عشر جنيهاً.

قال جدي وهو يسترد نقوده من يدي وقد لاحظ دهشتي: «لأجْل الولد الصغير دفع حاضر. . . على أي حال المعاملة مع الولد أخْيَر من المعاملة مع جده».

يومذاك كان جدي سعيداً بذلك الوضع الشاذ، وقد رأيت عيني مختار ود حسب الرسول الضيقتين تتسعان بإجلال لا يخالطه تحفظ، ورَنا حمد ود حليمة إلى مَرْيُود وهو يخرج مقهقهاً، كما يرنو إنسان مخلوق من طين إلى ملاك هبط من السقف. ولا أخفي عليكم أن كل هذا قد ترك عندي أثره. أحسست في تلك اللحظة أنني أشاهد معجزة. ولو أن أحداً قد قال لي يومها إن الأقدار قد اختارت مريودْ ليعقد صلحاً بين الماضي والمستقبل لصدقت. فجدي رغم حذره صدق وأهل البلد قاطبة صدقوا. ولكن يا له من أمر عظيم كان في ذلك الضحى. كانت الرياح تجيء من مغاور بعيدة تصرخ آه وشَرْ ونار. كانت العفاريت تقفز من أسطح المنازل وأغصان الشجر، من الحقول والرمال وشعاب الجبال، من تحت أظلف البقر ومن منعطفات الدروب،تولول هب هد رب دن ند نار دار آه ها. ثم تتكشف الضوضاء في كلمة واحدة، بندرشاه. إنني الآن، رغم بعد الشقة، لا أستطيع أن أتذكر

ذلك الضحى إلا وتنتابني قشعريرة. كانت البلد كأن طائراً رهيباً اقتلعها من جذورها وحملها بمخلبه، ودار بها ثم ألقاها من شاهق. . . كنت كشخص في قبضة كابوس مليء بالصراخ والحركة، وهو مشلول في وسطه، لا يملك أن يتأخر أو يتقدم. كانت الفوضى كأنها تتفجر من تحت أقدامنا، وكان الناس يجرون مشتتين ها هنا وها هنا، يبحثون عن شيء ولا شيء، يبحثون عن المصدر وليس ثمة مصدر. الصور كلها كنثار الغبار، ما تكاد تستقر في العقل حتى تتفتت فتتاً ومعها الكون والحياة. هكذا رأيت حمد ود حليمة في ذلك اليوم، يتقدم إلى أمام ثم يتقهقر إلى وراء، كأنه نائم أو ميت، تتلاعب به قوى غير مرئية.

وفي أطراف ذلك الكابوس كانت نساء حاسرات الرؤوس، وجوههن مغبرة يتشبثن برجال مكتوفي الأيدي مربوطين بحبل غليظ إلى سرج جمل، وعلى الجمل جندي يحمل بندقية، ورجال عشرات يسدون طريقه، ثم رد رش شب شنشربابه يد نا دا ده، تنصهر وتختلط وتشكل صورة مجسمة، هي صورة بندرشاه على هيئة مريود، أو مريود على هيئة بندرشاه، وكأنه يجلس على عرش تلك الضوضاء ممسكاً

خيوط الفوضى بكلتا يديه، وسطها وفوقها في الوقت نفسه، مثل شعاع باهر مدمر.

كنا مثل سرب عظيم من طيور مذعورة، تفترق وتلتقي وتعلو وتهبط، وتدور بعضها حول بعض، محدثة صراخاً منكراً يصم الآذان. في ذلك الضحى كان الماضي والمستقبل قتيلين لا يجدان من يواري جثتيهما أو يبكي عليهما.

بلى، كان جارنا مسعود ذا صوت جميل وضحكة صافية تشبه شيئاً عذباً خيل لي يومها أنه صوت قرقرة الماء. وقد كان حصاد التمر كما ورد في تلك القصة، ونقله بالجمال والحمير، وما كان من أمر جدي مع جارنا مسعود، وما كان من أمري مع جدي. وقد كان من المحتمل أن يظل مكان تلك الحادثة من بقية أحداث حياتي واضحاً ثابتاً. لولا أننا أصبحنا ذات صباح فإذا نحن فجأة لسنا موقنين من شيء.

***

قلت لسعيد، الذي كان قبلاً يلقب بسعيد البوم:

«قالوا سموك سعيد عشا البَايْتاتْ».

ضحك ضحكته البريئة التي أذكرها من أيام طفولتي في ود حامد، وقال بلهجته البدوية:

«الوليه فطومة أجارك الله. وقت العُرَقي يشْلَغْ في راسها تطلع الكلام خارِمْ بارِمْ».

قلت له: «وكمان فطومة غنت في عرسك؟».

فقال: «يا محيميد أخوي، في هادي الأيام الفلوس مو تجيب فطومة. عليَّ الحرام الفلوس تجيب الهواء من قرونه».

قلت له: «فطومة شِنْ قالت فيك؟».

فقال فخوراً وهو يبرم شاربه الصغير، الذي يجلس قلقاً على فمه كما تجلس العمامة المفرطة الكبر على رأسه:

«يا زول. فطومة تطير عِيشَتْها. هولكين غنا نُصاحْ؟ يا زول. ألعرس الْما غنَّت فيه فطومة أصلاً ما يقولوا عليه عرس».

وأعدت عليه السؤال، فقال:

«عليَّ الحرام أخوك عرّس عرساً خلَّى ناس هالبلدة

تنسى عرس الزين. اسأل أياً من كان يقول لك العرس عرس سعيد والاَّ بلاشْ».

عرس الزين كان أعجوبة. أما أن سعيد البوم يصبح صهراً للناظر بجلالة قدره، فهذه هي المعجزة. وقال سعيد: «عليك أمان الله. الأمة ما لقينا محَلْ نحشرها. قَبايل قَبايِلْ. كل قبيلة تسْوي الشَيْ الفُلاني. عملنا العقد في الجامع. الإمام قال للرجالة كل واحد يشوف ويسمع... سعيد راجل حبابه عشرة، ما في إنسان يقول سعيد البوم».

كنت متشوقاً أن أعرف ماذا قالت فطومة، وأعدت السؤال فقال:

«فطومة تطير عيشتها. تقْطع الوصف كأنها تقرأ في كتاب. العشرة جنيه حلال عليها».

«هالله هالله.. عشرة جنيه؟».

«عشرة جنيه عاقْلة وحياة خوتك يا محيميد. قلت لها اسمعي يا ولية، المثل يقول أدي الغَناي وعدُّه، وأدي المداح وعشّه. بَدُورْ منك اسم، ينسى أهل ود حامد إلى أبد الآبدين كُنْية سعيد البوم. جنّنونا الله يرضى عليك... البوم...

البوم.. يقطع طاريهم. قالت لي: وقت الدَّارَة تعمر والرقيص يَهيجْ تشوف كيف غُنا فطومة».

«وبعدين يا سعيد... فطومة كيف وصَّفتك؟».

«عليك أمان الله. وقت العجاجَة قامت والبنات نكعنْ شعورهن كدى[1] ودخلن الحلقة. وأخوك واقف عنتر يهز بالسوط.. الله لا يكسبك يا فطومة».

«أيوه. وبعدين؟».

«قالت كلام كتير... اسأل عنه أحمد أبو البنات، حافظه كله، الله لا يكسبه حسنة». اسمع هادا الوصف:

وقتين الخَبَرْ جاني   الخميس الفَاتْ
زغردت وقدح لك   يا اخو ألاخوات
أريدك يا سعيد   يا عشا البايْتات

واسمع كمان:

سعيد الظَّريف   تمساح الجزائر
صيته قام   وعمَّ البنادر

(١) هكذا.

عشا البايتات القَوي   فارس العشائر

زغردن يا بنات دا   عريس بت الناظر

وهنا استبد به الطرب ووقف وضرب برجله وقفز وهز بيده كأنه في حلقة رقص.

قلت له «لكين الناظر كيف قبل؟».

قال سعيد على الفور «مجبور».

قلت «إلْ جبره مين؟».

صمت برهة كأنه يفكر ثم قال:

«مالي خدمتُه بي إيدي... يجي ألف جنيه.. عاوز يغشني فيه».

كان سعيد يبيع الفحم وخشب الوقود ويعمل في الحقول ويدخر ماله عند الناظر. قلت له:

«يا زول خاف الله. وين لقيت ألف جنيه؟».

فقال «إذا ما مصدقني اسأل الإمام. اسأل شيخ علي وحاج عبدالصمد».

قلت له «يعني الناظر زوجك بنته نظير مالك الموفَّره عنده؟».

فقال: «تقولوا سعيد البوم. سعد الغشيم. عليك أمان الله، مالي أنا عارفه على داير المليم. الحكاية أنا متحضر لها من زمان».

فقلت «كيف؟ يعني انت من زمان مضرَّب على بت الناظر».

فقال «الله. ودي عاوزه كلام؟ أنت قايل الشغل اللي اشتغلته في بيت الناظر... يا سعيد إملا الأزيار.. يا سعيد جيب القَشْ للبهايم.. يا سعيد كسِّر الحطب.. دا كله ساكت؟».

«سمح... وبعدين».

«ولا بعدين ولا قبلين. يمكن فوق سبعة سنين وأنا اشتغل زي الحمار. كل ما أجمع خمسة قروش أو عشرة أو عشرين جنيه، أمشي لي صاحبي أبو البنات يقيده لي في دفتر، وامشي أديها الناظر. كل سنة يقول لي يا سعيد ما تجي تاخد قروشك. أقول له خليها عندك ما بتروح. سنة ورا سنة،

وقرش فوق قرش. في المدة دي بته الوسطانية عرّسوها وطلّقوها. تطْراها شينة وعويناتها عمْشة، صبرت لا مِن فاتت سنتين ثلاثة والبت قاعدة. ما في جنس إنسان حَام عليها. أنا أخو الرجال. قلت يا سعيد خلاص. المسألة تمت».

قاطعته من فرط دهشتي قائلاً:

«الله لا يكسبك يا شقي دا كله ونحن قايلنَّك غشيم؟».

ضحك وقال «يا زول. في زول غشيم؟ بني آدم الجن ما يقدر عليه».

«وبعدين يا مقطوع الطاري؟».

«بعدين شلت الدفتر ومشيت للناظر. أنا عارفه أحواله معَكّسة بعد ما راح المعاش، والقروش، دخلت عليه. قلت له والله جنابك أنا هَسّع غِردان في القروش.. يا زول أقول لك اتململ واتحكحك. وبعدين قال لي: تعال باكر. القروش ما هن حاضرات. يا زول. خلاصة الحديث. امش تعال في باكر وبعد باكر. بعدين قلتله اسمع جنابك. انت قروش ما عندك. دحين أنا أديك فهم. تعرّس لي بنتك العمشة دي. ونبقى حبايب. يا زول... كان قاعد فوق كرسي زي قعدتك

دي والوقت عصير. نطّ هادي النطة من الكرسي. أخوك اتحضر. قلت الحكاية فيها ضرب.. عارف انت عجرفة جناب الناظر. قال لي: يا بني آدم انت عقلك فاقد؟ انت تفتكر البلد ما فيها قانون؟ انت سعيد الوسخان العفنان تتزوج بنتي أنا؟ قايل يخوفني. علي اليمين، أخوك ركز هادي الركزة. قلت له هِيْ، بعد داك ما في جنابك. قلت له هِيح افتح اضانك زينْ. أنا سعيد ود زايد ود حسنب الرسول. عربي حر. عليّ اليمين أهلي في سوَد رِي يحجبو ضو الشمس. مالي أنا؟ مسلم موحِّد الله. أنا الوسخان العفنان دا اعرس بتك. هي بتك شن طعمها. شينة ومعمشة وعزبة، وإن قعدت لي أبد الآبدين ما تلقى أخيَرْ مني. وإن ابيت كمان شايل لي يمين، اطلعك محاكم وانزلك محاكم لا مِن آخذ قروشي منك».

تخيلت الناظر بخيلائه وطلاوة لسانه في هذا الموقف المهين مع رجل لم تكن صداقته معه إلا نوعاً من التصدق.

«وبعدين يا سعيد؟».

وضع سعيد ساقاً على ساق، ورشف من فنجان القهوة أمامه. ثم وضع الفنجان برشاقة متكلفة مضحكة وقد هيأتُ له

ليتصدر ساعة أو ساعتين مسرح الأحداث في ود حامد، فكأنه أصبح في تلك اللحظة القطب الذي يدور حوله الكون. قال سعيد:

«آني كنت رابط كلامي مع الوليَّة أم البت. الهي يعدلها عليك يا فاطمة بنت التوم. علي اليمين مره توزن قبيلة. آني كنت عارف علاقتها بينا. أمها من جماعتنا عرب الفور».

«فاطمة بنت التوم امها منكم؟».

«ايي. كيف مُو منِّنا؟ فاطمة بت التوم مو أُمها حليمة بت رابح. والإمام ذاته مولانا. انت عارف أمه من وين؟».

«أوعى كمان تقول منكم؟».

«بسم الله الرحمن الرحيم. انت مغيبي ولا شنو يا محيميد؟ الإمام أمه مَرْها بِتْ جادينْ هي وحليمة بِتْ رابح بنات عَمْ لَزَم».

«ما شاء الله. يعني حكايتك تمت من الجهتين؟».

«ثلاث مرات. الناس قالوا الراجل جنه ولا شنو. مشيت دبحت وسويت الكرامة. قلت لهم داير عرّس بأمه

وأبوه. عرس من أول جديد بي غناه ورقيصه ودلكتّه وسيرته ونجيب فطومة. الناظر بقي في ايدي زي العجين. أقول له يمين يقول يمين. أقول له شمال يقول شمال. عليك أمان الله. العرس هز البلد من فَويق الطلحة لا عرب الفور. عرس الزين بقى جنبه زي الطهوره. أنا أخو البنات. عليك أمان الله. أخوك قدل في حوش الناظر. هزّيت فوق فطومة حتيت[1] لها جنيه، دا غير العشرة الأخدتن مقدم... وقتين الوليه غنت:

سعيد الظريف جيد لي أُمه
والدايره كله المولى يتمه
عرّسْ سمح والقوم اتلموا
يا حاسدينه هوى أخير تنجموا

الزغاريد وجوجت وأنا راسي بقى طول السقف».

قلت له: «طيب والآذان؟».

فقال سعيد «الآذان شن فيه... أنا عامله علي الحرام

(١) حطيت... وضعت.

حسنة لوجه الله تعالى، واصله حمد قال فتر من طلوع الميدنة كل يوم».

قلت له: «وعلى أي حال ما دمت بقيت صهر الناظر الباقي كله هين».

فقال باحتقار: «ناظر شنو؟ أنا فاضي في الناظر ولا حتى في العمدة. أنا عندي القروش. عليّ الحرام في اليوم العلينا دا ان ردت[1] بت العمدة آخدها».

قلت له «والقروش جات من وين؟ ولاً لقيت لك خزنة مدفونة؟».

فوقف وهو يضحك مسروراً وقال:

«لازم امشي احصل السوق، حكاية القروش احكيها وقت تاني».

وخرج وهو يرنم بصوته الضعيف الخالي من الرنين:

سـعـيـد الـظـريـف جـيـد لـي أمـه

(١) أردت.

والــدايــره كــلــه الــمــولــى يــتــمــه

❋ ❋ ❋

يروي حمد ود حليمة أن عيسى ود ضو البيت خرج عليهم ذات يوم وكانوا صبية صغاراً في لباس كأنه لباس العيد ولم يكن الوقت عيداً. كان يلبس جلابية جديدة من الحرير وعلى رأسه طاقية حمراء جديدة مشغولة وعمة ناصعة البياض وفي رجليه حذاء أحمر يلمع. ويقول حمد إن هيئة عيسى كانت شاذة حقيقة وسط صبية بينهم العاري والذي لا يلبس غير خرقة حول وسطه، والمقطع الثياب والمتسخ الثياب، ظهر لنا غريباً ومضحكاً. أول ما رأيته صرخت «بندر شاه» وأخذنا جميعاً نردد «بندرشاه، بندرشاه» وطاردناه حتى أدخلناه داره، ومن يومها ولا أحد يناديه بغير بندرشاه.

ويستطرد عيسى قائلاً:

«مسألة الأسماء عجيبة. بعض الناس أسماؤهم تناسبهم تماماً الخالق الناطق. عندك حسن تمساح، والله لينا ود جبير الدار، وبخيت أبو البنات، وسليمان أكل النبق، وعبد المولى ود مفتاح الخزنة والكاشف ود رحمة الله. كل واحد منهم اسمه لابس عليه زي غمد السكين. وتجدهم جميعاً ملاعين

أجارك الله من شرهم. وأنا مثلاً الناس تقول لي ود حليمة ما في إنسان يطري عبدالخالق. السبب؟ اسأل مختار ود حسب الرسول، الله لا يعدلها عليه شق إيش ما يقبل».

جمع حمد ثوبه حول هيكله النحيل وقال:

«حين كنا صبية ندرس القرآن في مسجد حاج سعد، كان مختار صبي عاجْباه نفسه، مفتول العضلات مرهوب الجانب. نجتمع بعد الدرس تحت شجرة السيال الكبيرة الموجودة إلى يومنا هذا. ويقف مختار وسط الحلقة عاري الظهر يركز للمبارزة، كانت تلك الأيام أيام فروسية ومرجلة والولد الخواف لا يقدر يعيش وسط أولئك التماسيح. والمبارزة بأيش، سوط طول الذراع من عروق السنط. اللهم صلي على نبينا. ما كان صبي يحتمل أكثر من سوط أو اثنين بالكتير من مختار ود حسب الرسول. أما هو فكان ظهره زي ظهر عجل البحر قدر ما تضرب فيه بالسوط ولا أثر. أنا ما كنت أحتمل الضرب أبداً. أقف بعيداً لا بيّ ولا عليّ وكفى الله المؤمنين شر القتال. طول النهار مختار راكز وسط الحلقة والأولاد يدخلوا واحد ورا واحد. سوط سوطين بره. سوط سوطين غيره. وكان مختار كل ما يلقاني يهزأ بي

يناديني باسم أمي من شدة الاستحقار، يقول لي يا ود حليمة متين تبقى راجل تدخل الحلقة مع الرجال؟ المغصة تحش قلبي زي السكين، وازعل غاية الزعل. لكني أنا قليّل وكحيان. كيف العمل؟ يوم من ذات الأيام حزمت أمري موت حياة ما عليّ شي وأخيَر من قوله ود حليمة. أقول لك بني آدم مصيبة معلقة بالسببية إذا دست على طرفه ما يغلب حيله أبدا. بعد الدرس جريت إلى بيتنا. كيس شطة يمكن رطل. شلته وانطلقت فوق الخلاء لحد ما البيوت ظهرت رهَاب رهَاب. شطة حمراء نار الله الموقدة أكلتها كلها وقلعت عريان ومسحت بيها جسمي كله. العياذ بالله من النار إل ولّعت في بدني. نار الجحيم انطلقت وأنا أصيح بطول حسي وايْ واي والدنيا خلاء ولا حد سامع وابزِطِعْ واتمرمغ في التراب. والعرق قنازل شلْ شل. يا زول ألم أجل الله السامعين شيء يمخول العقل. بعد داك ألم يهمني أبداً، أدخل النار ما أحس بأي شيء. جريت وقميص في إيدي وعيوني شرار والرواس وزمان قدر الزير. وصلت السيالة لقيت مختار ود حسب الرسول إلْ ما يخفي على راكز عامل عنتر خلّص على الجماعة كلهم. تُشْ دخلت ووقفت قدامه

وركزت. عايَنْ[1] لي باحتقار. قال ود حليمة: اليوم بقيت راجل؟ امرق. أنا ما أقاشِطْ واحدْ ولد مَرَه. الله وأكبر. رمقته بي عيون زي الشرر. قلت له ابقى راجل اضرب. اتبسم وضحك، وعاين جاي وجايْ والجماعة يضحكوا. صبركم بالله. ود مفتاح الخزنة وود رحمة الله ضحكهم عالي. قالوا ود حليمة راح في داهية مسك السوط وحَنَاهُ بي إيديه الاثنين وفرقعه في الهوا وَجْ وَجْ. بعدين لفّ حوالي ونقرني بالسُّوط نقرات خفيفة هنا وهنا، عاوز يزعزعني، وأنا راسي فيه ستين ألف عفريت. وبعدين ركّزْ وضرب رجله اليمين في الأرض ولُولَح السوط ونزله. وحياتك نزل عليّ برداً وسلاماً بعد نار الشطة. جلدي خدران كأنه ميت، إذا جرحته بالسكين ما يحس. هَبَدْني بالسوط الثاني والثالث وأنا راكز زي الحيطة، إذا كان الباب دا يحس أنا أحس. وقت وصل السوط السابع وقف. زَحَّ لي ورا وعايَن لي باستغراب. حَدَّرْته بنظرة زي سم الله الهاري. بلع ريقه. صاحبيْ بدا يتزعزع. بَعْد ما في ضحك. الناس سكتو بم. ضحك ود مفتاح الخزنة وود رحمة الله يبس في حلوقهم.

---

(١) نظر.

عليك أمان الله، حسيت زي كأن شيطان مارد في بطني بقى يتحرك ويكبر ويفَرْهِدْ ويفرد جناحاته فوق العالم كله. حسيت كأني جبار شمهورش إذا كان سقف السما وقع أسنده بإيدي. الشطة أجارك الله وحرقة القلب: صرخت فيه يا زول بي صوت ما أعرف جاني من وين. قلت له يا وليد ميمونة، أحقره باسم أمه، ابقى راجل واضرب بالسوط. قسماً النهار ده يا إنت يا أنا يشيلوه من هنا للجبانة.

الناس ساكتة صن. ضربني التامن والتاسع والعاشر، ضرب بي غل، ضرب القوي لما يعرف أنه ضعيف، ضرب الضعيف وقت يعرف انه ضعيف. لما وصل تلاتين، جدك وبندرشاه الله يمسيهم بالخير وقفو. مسكو السوط من إيده. قالوا له خلاص انت اخذت حقك، الضرب لي حمد. أنا أخو البنات. يا زول، حسيت زي كأني سر عسكر الترك. بقيت انفخ واقْدِل. قلت لهم خلوه يضرب. قسماً بسورة كافْ لامْ ميم، شوف عندك جِنسْ قَسَم، ود ميمونة الليلة لازم يشيلوه جنازه. جدك وبندر شاه قالوا أبداً. تلاتين سوط كفاية. مسكت السوط لقيته مليان دم. الله أكبر. هزيته فوق الحاضرين ولَفّيت في الحلقة لفتين وأنا أقول واتْبَخْتَرْ.

ود مفتاح الخزنة وود رحمة الله منكمشين يعاينوا للأرض من الخوف. نقرت كل واحد بالسوط فوق راسه. بعدين طلقت الزغاريد. أيُوْي ايويْ أيُويا. عاينت لي مختار ود حسب الرسول لقيته راكز متماسك لكين جبهته نَدَّتْ بالعرق. بقيت أدور حواليه وانقِبشُه بالسوط مرة مرَّة، واصرخ وابرْطِغْ بعيد وأجيه راجع، واقيف قدَّامه وانُط في الهواء عملت عليه حرب أعصاب، لحد ما اتأكدت زولي خلاص حالته بقت حالة. ود مفتاح الخزنة وود رحمة الله بعد ضحكهم ما كان ضدِّي بقى مَعَايْ. الوحيدين ألْ بقوا يضحكوا ورايْ كل ما ضحكت. الله يخيبهم. دايماً مع الغالب. رفعت السوط فوق ونزلته شَر. عليك أمان الله كأنك شرطت لك قماش. مختار ما اتزعزع لكين عينه رمشت. نزَّلت السوط التاني سمعته قَنَتْ. أنا أخوك يا السَّمْحة. اديته الثالث زَح ورا شوية. السوط الرابع اتَّرتَغْ. السوط الخامس وقع بُبْ غمران. الناس ساكتة ولا حس. مبهورين. أنا التعبان الكحيان حمد ود حليمة اهزم مختار ود حسب الرسول، الفارس المغوار والبطل الهدار.

أقول لك، شعرت كأنني سيد الكون، مالك الليل

والنهار. والحكاية كلنا أطفال أكبرنا عمره ما يحصل تمانية سنين. بقيت أضرب من طرف، أغير يمين وأغير شمال. أجوط بي جاي وبي جاي. وأكتر ضرب ضربته ود رحمة الله وود مفتاح الخزنة. يا زول. ركبني جن. وقفت وسط الحلقة وختيت[1] رجلي فوق مختار، وهو راقد جثة هامدة، زي كأنني أسد واقف فوق الفريسة. بقيت أتكلم كلام خارم بارم ذكرني بيه جدك وبندرشاه بعدين. قالوا خلاص كفاية. جدك قال لي خلاص عرفنا انك راجل. رد عليه بندر شاه قال إذا كان ود حليمة يفتكر أنه راجل، في ارجل منه. وما أحس إلا وضربة في بطني من بندرشاه. بعدها ما عرفت حصل شنو. وقت صحيت لقيت نفسي في بيت بندرشاه، على عنقريب[2]، وجنبي راقد مختار. والألم أجار الله. أنا اصرخ واي، ومختار يصرخ واي».

***

(١) حطيت... وضعت.

(٢) سرير شعبي سوداني.

«يا محيميد».

التفت محيميد ناحية الصوت وصرخ «نعم».

تعجب ود الرواسي وقال له «ترد على من؟».

أدرك محيميد فوراً أنه كان غاطساً في حلم، وانه استجاب لنداء لم يوجهه إليه أحد.

قام محجوب ومضى وعرج عبدالحفيظ عليهم في طريقه إلى المسجد.

قال ود الرواسي «مسكين محجوب. انهزم».

كان السؤال على طرف لسان محيميد منذ أول ليلة. لكنه لم يرد أن يسأل، وكان يأمل أن يجيء الجواب من تلقاء نفسه. هو، محيميد، أيضاً مهزوم، هزمته الأيام وهزمته الحكومة. إن طال الزمان وإن قصر سيسألونه، سيسأله ود الرواسي في الغالب، سيقول له «ما بالك تقاعدت وانت لم تبلغ سن التقاعد؟» سيقول له «أحالوني على التقاعد لأنني لا أصلي الفجر في الجامع» سيقول ود الرواسي «هل هذا جد ولا هزار؟» سيقول محيميد «عندنا الآن في الخرطوم حكومة متدينة، رئيس الوزراء يصلي الفجر حاضراً في الجامع كل يوم وإذا كنت لا تصلي أو كنت تصلي وحدك في دارك،

فسيتهمونك بعدم الحماس للحكومة. ان تحال للمعاش كرم منهم».

يدهش ود الرواسي ويقول «أما عجايب».

وسيقول له محيميد «بعد عام أو عامين أوخمسة ستجيئنا حكومة مختلفة. لعلها غير متدينة. وقد تكون ملحدة. إذا كنت تصلي في دارك أو في الجامع فإنهم سيحيلونك للتقاعد» سيسأل ود الرواسي بدهشة عظيمة «بأي تهمة؟» وسيرد عليه محيميد قائلاً «بتهمة التواطؤ مع الحكومة السابقة».

لن يصدقوا آذانهم وسيقولون بصوت واحد «أما عجايب».

كان سعيد قد خرج وجلس على الكنبة بجوار الطاهر ود الرواسي، وكان محيميد مستلقياً على الرمل يحس برودته على خده وساقيه. قال سعيد فجأة:

«لعنة الله على أولاد بكري. إن شاء الله ما تتعدل عليهم».

لم يستطع محيميد أن يصبر أكثر مما صبر فقال «ماذا فعل أولاد بكري؟».

كان سعيد عشا البايتات قد وصل في آذانه إلى (حي على الفلاح) فمضى يعاظلها متعسراً كسيارة شحن غطست في الرمل، يخترع حروف مدّ ليست موجودة، ويغض الطرف عن الموجود منها.

ضحك ود الرواسي وقال: «عشا البايتات الليلة وحلان أكثر من العادة».

قام عبد الحفيظ بعزيمة أدهشت محيميد. كأنه يريد أن يجلس ولكنه مصمم على القيام. منذ عاد محيميد إلى ود حامد وعبدالحفيظ يجيء كل ليلة، ولا يقول شيئاً. يجيء كالمعتذر، كالذي يريد أن يبوح بسر.

واتسعت هوة الصمت حتى امتلأت بكل تلك الأفكار، وقال سعيد ملاحقاً تساؤله الذي كان يضيع في الزحام: «الطريفي ولد بكري عاوز يعمل بندر شاه».

صعد محيميد بخياله مع الاسم الرهيب وهو يكبر كمارد جن وسط ذلك الظلام. وكنخلة عملاقة لا أول لها ولا آخر، التف حولها نبات طفيلي متسلق، التفت هبوب امشير حول ذلك الاسم، من أسفل إلى علا، من ظلام إلى ظلام. اسم

تحيط به كآبة ليست بنت يومها، أين ومتى سمعه من قبل؟ تذكر محيميد شخصاً ما، لا بل كائناً ما، واقفاً كأنه معلق بين الأمس والغد، ممسكاً بسوط طويل عليه آثار دم، مل سليمان حين طفق مسحاً بالسوق والأعناق. هل ذلك هو؟

وعلى العشاء تناوب ود الرواسي وسعيد قص القصة على محيميد. كان سعيد غاضباً حين بدأ وغاضباً حين انتهى. وكان ود الرواسي يروي بلهجة من لم يعد يدهشه شيء. قالا إن الحكاية بدأت بنزاع حول أرض، فإن أم أولاد بكري هي أخت محجوب. كان محجوب يظن أن الأرض أرضه، ولكن أولاد بكري تصدوا له فجأة، وهو شيخ قد طعن في السن، وهم شباب في أوج رعونة الشباب. ظلوا ينازعونه حولاً بأكمله يطلعون لمحكمة وينزلون من محكمة، خسروا الأرض ولكنهم قوضوا سلطان محجوب. بدأوا يقولون جهاراً ما كان الناس يقولونه سراً أو لا يقولونه البتة. وكأنما البلد كانت مستعدة لتغيير. زاد الهمس وارتفع اللغط. وكان الطريفي ولد بكري يتصدى لمحجوب في المجالس ويقول على مسمع منه «هذه العصابة، محجوب وجماعته، متى يتخلون عن زمام الأمور في ود حامد؟ هؤلاء جماعة انتهوا. كفاية أكلوا البلد

أكتر من تلاتين سنة». كلام كثير من هذا النوع كان يغضب محجوب، ولكن كل عمل يقوم به ضد أولادْ بكري كان يقلل من هيبته.

ويسأل ود الرواسي في حسرة: ماذا يفعل رجل كبير محترم إذا تحرش به غلام صعلوك؟ إذا ضربه يقول الناس، هذا الرجل قليل القيمة يضرب الولد الصغير. وإذا تركه يقول الناس هذا الرجل الباطل لايقوى على ردع غلام صعلوك».

قال سعيد إن محجوب كان زعيماً في ود حامد، لمؤهلاته، ولأن البلد كانت قابلة به. تلك الكلمة «القبول» كان لها وزن عظيم عند محجوب وجماعته، يقولون فلان «مقبول» وفلان عنده «قبول» وذلك أعظم الثناء في رأيهم. ثم أدركوا كأنما فجأة، أن الكلمة لم يعد لها معنى، وأن ذلك الشيء الغامض، الذي يجعل الابن ينصاع لأبيه والمرأة لزوجها، والمحكوم للحاكم، والصغير للكبير قد تلاشى. كأنما أهل البلد قد استيقظوا بغتة من حلم قديم، أو كأنهم استسلموا لحلم جديد. بدأ الناس ينظرون بعيون جديدة فيها عواطف شتى وليس من بينها عاطفة القبول.

قال ود الرواسي وسعيد، إن كلام أولاد بكري بدأ يؤثر في قلوب الناس، وتكوَّن لهم حزب معارض أخذ يقوى ويشتد وقاموا بجمع التواقيع لعقد اجتماع عام للجمعية التعاونية وهو أمر لم يحدث منذ تكوين الجمعية. كان هدفهم إقصاء محجوب وجماعته من لجنة الجمعية وكل اللجان التي سيطروا عليها منذ أكثر من ثلاثين سنة. محجوب، بعدما يربو على ربع قرن من السلطان المطلق، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام شعب ود حامد يقاضونه الحساب.

وانتهى الأمر بانعقاد الجمعية برئاسة باشمفتش التعاون الذي جاء خصيصاً من مروى لذلك اليوم المشهود. قال ود الريس إن الطريفي ولد بكري كان أول المتكلمين. قرأ عريضة طويلة ضمنها كل ما يمكن أن يخطر على البال من التهم. اتهم محجوب بالفساد والرشوة والسرقة والمحسوبية وعدم الكفاءة والإهمال وهلم جرا. وتوالى الخطباء وكلهم في الجانب المعاكس، كان من بينهم سيف الدين وسعيد البوم... عشا البايتات القوي... فيما بعد عمل وليمة للجنة الجديدة. «طبعاً ما دام أصبح أمين صندوق. هل تصدق يا محيميد أن أولاد محجوب صوتوا ضده؟ وان البنات عملن

مظاهرة في ود حامد وهتفن بسقوط محجوب وشلة الحرامية؟».

يأخذ سعيد خيط القصة من ود الروّاسي «محجوب قاعد يسمع الاتهامات كأنه تمثال من خشب. أنا والطاهر فقط حاضرين من جماعتنا. عبدالحفيظ من يوم ما عرف طريق الجامع استقال من كل شيء ونفض يده. قال كله كلام فارغ. أحمد كان سكران كالعادة وما حضر الاجتماع. ود الريّس زي ما تعرف، مات بالمغصة. أولاد بكري أمهم، أخت محجوب، جات ووقفت وسط الرجال وشتمت أولادها بأقذع الألفاظ. الكلمة الوحيدة النطقها محجوب من أول الاجتماع لما نهر اخته قال لها «يا وليه روحي لبيتك». حكاية غريبة حصلت ما عرفنا أولها من آخرها. أولادنا أصبحوا ضدنا. المدارس فتحناها بالعرق والتعب والجري هنا وهنا، طلّعت أولاد بقوا يتفاصحوا علينا. البلد أتاريها اتلخبطت تحت رجلينا ونحن نايمين نوم العوافي. أنا وود الروّاسي وقفنا وشتمنا الناس واحد واحد، بالاسم، ذكرناهم بجمايل محجوب عليهم، أيام محجوب كان الوحيد الصاحي وبقية الناس همل. لكن الأمر انتهى، صوتوا برفع اليد. الأغلبية

طلعت ضدنا. تحت السيالة الكبيرة، وسط البلد، نص النهار،محجوب انهزم. محجوب النمر هزمته الضباع. أطفال وصعاليك وبنات فارغات وحوش. انتخبوا الطريفي ولد بكري رئيس، وحسن ولد بكري نائب رئيس، وحمزة ولد بكري سكرتير، وسعيد عشا البايتات أمين صندوق، وسيف الدين مراقب أعمال، قالوا وظيفة جديدة لتحسين العمل في المشروع. البنات بتاع المظاهرة زغردن والطريفي هتف «يحيا الشعب». وين الشعب؟ ناس عشا البايتات وود رحمة الله ومفتاح الخزنة وهلم جرا؟ (ياهِم ديل[1] الشعب؟).

ويختتم ود الرواسي القصة «محجوب قام من الاجتماع منتهي. ما تفوه بكلمة. ما دافع عن نفسه. قعد وقام ساكت. من يومها وهو يمشي على وجه الأرض حيًا كميت. انتهى عهد وبدأ عهد في ود حامد. وإلى اليوم ما نعرف كيف دا كله حصل».

فكر محيميد وهو يجرجر الخطو نحو داره أواخر الليل، إنه يعرف مغزى تلك القصة، لأنه قد رآها تحدث من قبل في

(١) هذا هو.

زمان بعيد سحيق، ولعله كان طرفاً من أطرافها. في تلك القصة أيضاً، كانت الحرب ضاربة بين ما كان وما سيكون. وذ حامد التي حملها في خياله كل هذه الأعوام، وعاد الآن يبحث عنها مثل جندي في جيش منهزم، لم يعد لها وجود. كانت ساقاه تحسان بوطأة السنين الخمسين أو الستين، ولكنّ خيالَه كان خيال طفل دون العاشرة. الليل البهيم، وشجيرات السيال الجاثمات كنسوة في مأتم، ولمع الأضواء الموهومة في تلك الحلكة، وصوت الحياة الضعيف في كل ذلك العدم. وفجأة، ذلك النداء، وسط الظلام:

«يا محيميد».

نداء قريب منه، كحبل الوريد.

وقال محيميد «نعم».

نداء واضح مألوف يقول له «يا محيميد تعال».

هش له وقال نعم، ولم يخطر له أن ذلك أمر مستحيل، فقد كان النداء هو الظلام أو البرق الذي يلمع في جوف الظلام، ولم يكن له من بد إلا أن يسير وراءه ويقتفي أثره.

***

سرت وراء الصوت في جوف الظلام وأنا لا أدري هل أنا أسير إلى وراء أم إلى أمام. كانت قدماي تغوصان في الرمل، ثم أحسست كأنني أسير في الهواء، سابحاً دون مشقة، والأعوام تنحسر عن كاهلي، كما يتخفف المرء من ثيابه. ارتفعت أمامي قلعة ذات قباب عالية، يتوهج الضوء من نوافذها... ارتفعت كجزيرة سابحة في لجة. وصلت الباب يحدوني الصوت، فإذا حراس تمنطقوا بالخناجر، فتحوا الباب، كأنهم ينتظرون مقدمي، وسرت وراء الصوت في دهليز طويل، ذي أبواب، على كل باب حرس، حتى انتهينا إلى قاعة واسعة مضاءة بآلاف القناديل والمصابيح والشموع... وكان في صدر القاعة، قبالة الباب، منصة مرتفعة، عليها عرش، كرسي عن يمين وكرسي عن شمال وعلى الجانبين وقف أناس طأطأوا رؤوسهم... كان المكان صامتاً، لا كما تنعدم الضجة. ولكن كأن النطق لم يخلق بعد.

تبعت الصوت حتى وجدت نفسي ماثلاً أمام الجالس على العرش. وجه ناعم السواد مثل المخمَل، وعينان زرقاوان تلمعان بمكر كوني... خيل إلي أنني رأيت ذلك الوجه من

قبل، في عصر من العصور. وقال الصوت «أهلاً وسهلاً بابننا محيميد» الصوت ذاته الذي ناداني من قبل، وجاء يحدوني إلى هنا، صوت جدي، لا مراء في ذلك، والوجه وجه بندرشاه، يا للعجب. ومرت بي لحظة إدراك سريعة، عابرة، عرفت فيها كل شيء، كأنني في تلك اللحظة فهمت سر الحياة والكون. ولكنها ضاعت كما جاءت، ولم أعد أذكر شيئاً. ما عدت أذكر إلا الاسم السحري، بندر شاه. ونظرت فإذا الجالس عن يمينه نسخة أخرى منه، كأنه هو، وفهمت.

وقفت مشدوهاً برهة انظر إلى الصورتين تتراءيان هكذا وهكذا، تتشابهان حتى لكأنك تنظر إلى أصل واحد، لكن ما إن يستقر بك اليقين حتى تغرق في بحر من الضلال... هل هذا مأتم أم عرس؟ وهل نحن في الهند أم السند؟ في أم درمان أم أصفهان؟.

وأشار بندر شاه إلى الكرسي الخالي عن شماله، فجلست عليه. ثم صفق بيديه، فأدخل الجند أحد عشر رجلاً يرسفون في الأغلال، وقفوا أمامه بذل ورفعوا عيونهم إليه بضراعة، وقالوا بصوت واحد «يا أبانا اغفر لنا وارحمنا».

ابتسم الجالس على العرش، ونظر عن يمينه إلى حفيده

مريود. قام هذا ونزل من المنصة وجيء له بأسواط غليظة طويلة من عروق السنط. نزع الجند الثياب عن الرجال الأحد عشر، وأخذوا يجرونهم واحداً وراء واحد إلى مريود، فيجلد كلاً منهم، والجالس على العرش يسمع ويرى، يبتسم في رضى، ويشير بيده إذا شاء، حتى يكف الضرب أو يستمر. سالت الدماء أنهاراً من ظهور أولئك الرجال الأحد عشر، وهم يقاسون في صمت، لا صرخة.. كلا... ولا آهة ولا. كان الكون صامتاً أصم وأبكم وأعمى، إلا من فرقعات السياط على ظهور أولاد بندرشاه تحت سمع أبيهم وبصره، يفعل ذلك الحفيد نيابة عن الجد.

جلدوهم حتى أغمي عليهم، فسقطوا غرقى في دمائهم. وصفق بندرشاه فجاء الجند فحملوا الجثث وخرجوا بها، ثم صفق فجاء الخدم بأباريق الشراب فصبوا منها لبندرشاه وصبوا لمريود وقدموا لي كأساً مع جملة الناس.

وصفق بندرشاه مرة ثالثة فدخلت القاعة فتيات عاريات بارزات الصدور، تترجرج أفخاذهن وأعجازهن، فتيات بيض وسود وصفر وسمر من القوقاز والأهواز وساحل الخرز وساحل العاج، وجوههن عابسة كأنها أقنعة، خالية من الشهوة

والحس، رقصن وغنين وضربن بالطبل والدف والصنج. ثم تثاءب بندرشاه، وفي لحظة خلت القاعة، وبقينا نحن الثلاثة وحدنا جالسين على تلك المنصة.

طال الصمت وأنا أنظر إلى رشاش ألدم، وترن في أذني أصداء طبول وصنوج لا بهجة فيها. تمنيت أن يفسر لي بندرشاه مغزى ما حدث، ولكنه لم يقل، وأدركت أخيراً أن الصوت دعاني لأكون شاهداً وحسب.

***

كان صوت سعيد البوم كما سمعه محيميد في تلك الساعة، وهو بين النائم واليقظان، كأنه مغناطيس، قد علق به غبار الأحلام الموؤودة،فاتخذ أعماقاً وأبعاداً ليست له. لم يكن كما سمعه أول مرة، ذلك الصوت الأخرق الضعيف. هب من فراشه وتوضأ وخرج من داره، وهبوب امشير تنفخ في وجهه تكاد تصده، لا يدري لماذا فعل ذلك، لأنه لم يصلِّ الفجر حاضراً مع الجماعة منذ ثلاثين عاماً أو يزيد.

خرج من داره ومشى،وحذاؤه يغوص في الرمل البارد، والريح القارصة تلسعه حول ساقيه، مشى نحو المسجد كما كان يمشي جده، كأن النداء في ذلك الفجر قد عناه هو دون غيره، كأن ثمة دَيناً لا بد من قضائه، كأنه أخيراً يقوم بدور أعد له وظل يهرب منه كل تلك الأعوام.

وصل المسجد فوجده غاصاً بالناس. دهش أول وهلة،

وسأل عبدالحفيظ هل ذلك الزحام لأن أمراً عظيماً حل بالبلد. قال عبدالحفيظ «الله يهدي من يشاء».

لا شك أن عبدالحفيظ كان فرحاً لأن تجارة التقوى بدت رابحة في ذلك الصباح. فها هو سيف الدين المتأرجح بين الهدى والضلال. وها هو ذا مختار ود حسب الرسول الذي لا يصلي إلا على الأموات قام من فراشه وجاء إلى المسجد هذا الفجر تحت تأثير أي سلطان؟ وحمد ود حليمة الذي كان يقول إنه طلق طريق الجامع إغاظة في الإمام، ماذا أتى به الآن؟ وعبدالمولى مفتاح الخزنة الذي كان يقول إذا سئل عن تركه الصلاة «الصلاة موجودة والجامع سكته معروفة وسأذهب للجامع حين يرفع الله القدم»، ويقول له سليمان أكل النبق: «أنت تتحدث عن الجامع كأنه في مكة وراء البحر وهو على بعد خطوات من دارك».

جاء كلاهما في هذا الفجر. والكاشف ود رحمة الله حتى في هذه الساعة الباكرة، حسن الهيئة حسن الهندام كأنه مدعو إلى وليمة. والطريفي ولد بكري، الزعيم الجديد، لعله جاء يبارك انتصاره على محجوب. ومحجوب أيضاً، الذي لم يدخل الجامع في حياته من قبل، لعله جاء يستمد العون

الإلهي لمواجهة هزيمته. وفي الركن الأيسر تحت النافذة كان يجلس رجل لحضوره أثر، لم يستطع أن يميزه، سأل عنه عبدالحفيظ فقال إنه لا يعرفه.

شعر محيميد وهو يتمعن في الرجل الجالس تحت النافذة، بذلك الإحساس القديم عنده، مزيج من الخوف والترقب والتماسك. وفجأة تدفقت في مخيلته صور كاملة واضحة ليوم ختانه. كان في السادسة، تذكر الضجة ووجوه الرجال والنسوة يدخلون ويخرجون في الدور، والذبائح والزغاريد، وتذكر جده ممسكاً به، والسكين، وان الأمر تم في لحظة قبل أن يستعد له، واحساس الغيظ كأن أحداً ضربه بغتة، والألم المبرح فيما بعد. كان ثمة إحساس غير عادي، كأن نبياً ولد في ذلك الفجر، أو أن معجزة وقعت، أو أن كارثة كونية حدثت. كان عبدالحفيظ جالساً جواره فسأله ولكنه لم يرد، والتفت محيميد فوجد عبدالحفيظ ساجدا يتنفل وقد أطال سجوده، ثم سمعه ينهنه ببكاء مكتوم. ولما استوى راكعاً رأى وجهه في الضوء الباهت فإذا هو مبلل بالدموع.

قرأ الإمام سورة «الضحى» بصوت مجلجل استمد قوته من أحزان الرجال الذين اجتمعوا ذلك الفجر دون سبب

واضنح وعلى غير موعد. وكان عبدالحفيظ يبكي وحده أول الأمر، ثم انضم إليه سيف الدين، ثم سعيد عشا البايتات، ثم محجوب، وكان محيميد يتأرجح تحت وطأة كل ذلك بين الشك واليقين، يحس حين يركع أنه وصل، وحين يسجد يكتشف أن قلبه فارغ من كل شيء. ثم فاض البكاء، وحمل الموج الآيات المتلوة آية آية، تخفق على السطح كأنها أعلام.

وأحس محيميد أنه يغرق ورأى فوق خط الأفق الشخص الذي كان جالساً تحت النافذة، جالساً في صدر القاعة، كما كان تلك الليلة، أسود اللون، أزرق العينين، ممسكاً بخيوط الفوضى مثل شعاع باهر مدمر. كانت ثمة ديار عامرة وبيوت كأنها قلاع، وحقول ناضجة الثمار، وأشجار فينانة وطيور تغني. كانت الأنهار تجري باللبن والعسل، وفتيات بارزات النهود، من كل الأشكال والألوان يرقصن ويغنين. كانت الريح تولول شراً وناراً، ونساء ثكالى، ورجال مقيدون بالأصفاد، ووقع السياط على اللحم الحي. وكان بندر شاه يجلس في صدر القاعة يسمع ويرى وأصوات تنادي «يا أبانا اغفر لنا وارحمنا». كانوا اخوة أحد عشر، أرقاء للذي مضى والذي لن يجيء على صورة محددة، ثاروا ذات يوم

وحطموهما معاً، فأقفرت الديار وعفت الآثار، وجاء الجند وقادوهم إلى السجن.

استيقظ محيميد على صوت عبدالحفيظ وهو يقول له: «استغفر الله. استغفر الله» فوجد نفسه ساجداً يحس بألم في جبهته ووجهه مبلل بالدموع. استوى راكعاً وقال: «السلام عليكم» برعب، فإذا الناس قد فرغوا من صلاتهم وبقي ساجداً وحده. كانوا جميعاً ينظرون إليه بدهشة. التفت فوراً ناحية النافذة، حيث كان الرجل الغريب، فإذا هو ليس هناك. جرى نحوه، ولكن لم يكن أحد. صرخ بأعلى صوته «هل رأيتم الرجل الذي كان هنا؟» بعضهم قال نعم وبعضهم قال لا، ولكن أحداً منهم لم يره حين خرج.

في تلك الليلة، بدا كأن الزمان قد دار دورة عظيمة إلى الوراء. كانت ليلة دافئة وكان البدر في تمام. وكان محيميد يحس في قلبه نشاطاً كنشاط الأيام الخوالي. كان محجوب موجوداً وكان عبدالحفيظ موجوداً، وكان أحمد والطاهر والسعيدان، البوم والقانوني. وكان سعيد البوم هو قطب الرحى. كان محيميد يعلم أنهم سيسألونه قبل أن ينفض السامر في تلك الليلة، وأنه سيحكي لهم القصة دون مرارة، كأنها

حدثت لشخص آخر. ضحك سعيد البوم وقال:

«يا جماعة أنا عاوز استقيل من اللجنة. حكاية أمين الصندوق دي غير وجع الراس ما منها فايده».

والعجيب أن محجوب أيضاً ضحك وقال لسعيد:

«انت وسيف الدين وأولاد بكري قايلين الحكاية لعب. أها دَحِينْ خُمُّوا وصُرّوا».

وقال الطاهر لسعيد:

«يوم اجتماع الجمعية أنت يا عشا البايْتات السَّجَمْ ما أتفَاصَحْتَ مع المتفاصحين وقُلْتو محجوب وشنو؟ شِلّته شِلَّة الحرامية نهبوا البلد. دحين أنتو كمان ابقوا رجال وانهبوا».

وقال سعيد الآخر، وضحكته تكاد تعود كما كانت:

«فصاحة عشا البايتات من الله خَلَقْني ما سمعت زيها. اليوم داك مع ان قلبي محروق قرب ينفطر. وقت وقف عشا البايتات يخطب، عليك أمان الله لولا رهبة المناسبة، قرَّبت اقرقر بالضحك. تتذكر يا عشا السَّجم كلامك الْقلْته يومْدَاك؟».

ضحك سعيد لهذا وقال محجوب:

«أنا عليك أمان الله كنت محضّر ردي على الاتهامات كلها. كنت عاوز أبهدل ولد بكري قدام الناس كلهم ما اخلي له رجلاً يقيف عليها. وقت سمعت كلام عشا البايتات قِلت يا زول احفظ لسانك الحكاية بقت مسخرة ولعب وليدات. عليك أمان الله الواحد بعد دا لو أدُّوه مليون جنيه ما يقبل».

وقال سعيد «يا محجوب انت تتكلم ساكت[1]. جملة الأيمان الحكاية حارقاك في شراشِفْ قلْبك. وهسَّع اليوم الْعلينا دا لو نادوك للّجنة اليجْري وراك ما يحصلك؟ يا اخوانا أنتو مالكم طَمّاعين كدى؟ خلاص أخدْتوا حقكم. خلونا نحن كمان نشوف حظّنا سنتين تلاتة».

وقال أحمد «قبل شوية ما قلت دايِرْ تستقيل؟».

وقال الطاهر «يا محيميد شفت الراجل المنافق عشا السجم دا؟ عليك أمان الله، كان مَرّات حتْ عَشا ولِيداتُهْ ما عنده. اسأله قول له منو الكان بيعَبِّره نظره غير محجوب وشلة الحرامية؟».

(١) بلا معنى.

وقال عبدالحفيظ «مشاكل طلاقه وزواجه براها كان داير الها لجنه».

ضحك سعيد عشا البايتات وقال:

«أنا ما اتلومت معاكم. وسط الناس كلها قرّيت بأفضالكم. الحكاية رضى واختيار. الناس قالوا محجوب وجماعْته برّه. الطريفي وعشا البايتات جُوّه. تاني إيه؟».

وقال محجوب:

«سمح إن شاء الله أولاد بكري باكر ينفعوك».

وقال عشا البايتات ضاحكاً موجهاً كلامه لمحجوب:.

«يا محجوب خاف الله عاوز تعمل بندر شاه في البلد».

قال محيميد في سره إن سعيد لا يدري ما يقول، ولكن الاسم بدأ يطفو على السطح، وسيظل يتردد فيما بعد هكذا دون سابق إنذار، حتى تتضح الأشياء على حقيقتها، إذا كان ثمة حقيقة، وإلا فإنه سيصدر كما ورد، من ظلام إلى ظلام.

وقال الطاهر:

«خليك من دا كله. قول لنا كلامك القلته في الاجتماع».

وقال سعيد عشا البايتات، قطب الرحى في تلك الليلة المضيئة:

«يا محيميد أصحابك ديل حاقْرينْ بالناس وما عندهم علم بالحقيقة. يقولوا سعيد البوم. فَطُومه غَنّت وقالت عشا البايتات تمساح الجزاير. جُمْلَة الأيمان، الأذَان أنا عملته لوجه الله تعالى، والشغل في اللجنة غير الجهجهه والتُّلاتل ما وراه فايده. جُملةْ الأيمان، يوم الليلة، أنا لا سائل في لجنة ولا مشروع ولا حتى سائل في حكمدار المديرية...».

تذكر محيميد محادثته مع سعيد من قبل فقال له «يمكن لقيت لك خزنة مدفونة».

وقال أحمد «قالوا سعيد لقاله كنز. ولاّ وين لقيت الجخ دا كله يا مرَمّد؟».

قال سعيد «اللهم ارضى عنك يا شيخنا الحنين».

وقال محجوب «عليك أمان الله لا خزنة ولا كنز. قروش الناظر دخل عليك بالسَّاحِقْ والماحق».

ضحك سعيد ولم يرد، وقال أحمد:

«قالوا سعيد عاوز يطلق بنت الناظر».

وقال سعيد:

«بنت الناظر ما بطلقها. لكين العرس إن دَارْني ما بصُدّه».

وقال عبدالحفيظ:

«منو الْبترضاك يا رَمَادْ؟ انت قايل نفسك صغير؟».

وقال محجوب «يلقا له وحده من بنات الفن الطلعن ديل. وحده يتكلم انجليزي. الزمن دا زمن انجليزي».

وقال الطاهر «واحدة من بنات المظاهرة الهَتَفْن: يحيا الشعب. الشعب منو غير ناس سعيد عشا البايتات السَّجَمْ؟».

دهش محيميد دهشة عظيمة حين قال سعيد عشا البايتات باقتناع:

«جملة الإيمان البلد حاصل فيها خير. البلد ماشية على خير. إنتو ناس اما تبقوا حُكّام أو تقولوا البلد خِرْبَتْ. أيوه، يحيا الشعب. الشعب ياهم نحن. بنات المظاهرة حبابهن

عشرة. محتشمات ومؤدبات ومتعلمات. بناتنا وبنات وليداتنا. وإن لقيت لي ويحدثَنْ فيهن تعرّسني، جملة الإيمان باكر اعقد عليها...».

وكانت دهشة محيميد أعظم أن أحداً لم يضحك على قولة سعيد أو يحاجج فيها. كان القمر كأنه يبتسم بطريقة ما، وكان الضوء كأنه نبْع لن يجفّ أبداً، وكانت أصواتُ الحياة في ود حامد متناسقة متماسكة تجعلك تحس بأن الموت معنى آخر من معاني الحياة لا أكثر. كل شيء موجود وسيظل موجوداً. لن تنشب حرب ولن تسفك دماء. سوف تلد النساء بلا ألم، والموتى سوف يدفنون بلا بكاء، وسوف يحدث التغيير كما تتغير الفصول في مناخ معتدل، فصل أمام فصل، وفصل وراء فصل، كل في فلك يسبحون، والليل لا يسبق النهار. كان صمتاً رائعاً، وكان أروع لأنه حلَّ بلا توقع.

قال عبدالحفيظ «الله حي».

فكر محيميد أن واحداً من هؤلاء الثلاثة قد يقوم بدور بطولي. سعيد لأنه خلو من الطموح، دكانه لا ينقص ولا يزيد. يأكل ويلبس ويتبرم كما عهده منذ أكثر من أربعين عاماً. يغضب ويضحك كما كان. والطاهر ود الرواسي لأنه

يضحك على نفسه وعلى الآخرين، وولاؤه لا لنفسه، بل لمحجوب. أما سعيد الآخر فهو ابن يومه. ونجمه في صعود. ومهما يكن فإن لهم أدواراً لم يؤدوها بعد. محجوب أدى دوره وانتهى، وهو صاحب المأساة الحقيقية، لأنه لا يريد أن يبارح المسرح.

تنهد الطاهر الروّاسي ملء صدره وقال:

«روح يا زمان وتعال يا زمان».

ضحك سعيد القانوني وقال:

«أنا أقول لكم خطبة عشا البايتات في اجتماع الجمعية. خطبه لازم يكتبوها في الكتب ويدرسوها في المدارس. اسمعوا محيميد خل بالك كويس. أحمد وعبدالحفيظ ما كانوا حاضرين. الخلق محشورة تحت السّياله. الحر كاظم الأنفاس ونحن متحضرين للكتل. بعدين صويحبْنا الْ ما يغبانا يقيف عاوز يخطب. اللّيلة القبلها متْعشّي معانا هنا. تحلّف قال يصوّت معانا. وقت وقف أنا قلت لي ود الزواسي، معليش زي بعضه أهبل وعويل لكين برضه معانا. لا سلام عليكم ولا بسم الله ولا الحمد لله. قال ـ يا جماعة الخير. محجوب

وناس الطاهر وسعيد ناس اصحابي وأهلي. محجوب حبابه عشره. راجل ما يتفضل عليكم. جُملة الأيمان راجل يوزن ألف راجل، شكّال صريمه، ومخلِّص يتيمه. لكين الحق لله الجماعة أكلوا البلد، نَقّوا لخمها ما خَلُّوا غير العظم. الْخَرابَ. مِنْ الله مَا خلقنا والجماعة دِيلْ يسرقوا وينهبوا. حلال بارد عليهم. الشيء ال أكلوه ما في انسان عاوز يرجعه منهم. ناس عليك أمان الله تلقاهم في الحارّه والبارده. سرقوا ونهبوا البلد، الله لا يكسبهم حسنه. رجال فرسان وبطونهم ما تشبع. دَحينْ زي ما قال الزعيم الطريفي ولد بكري، الناس دي تتفضل تروح بيوتها بالتي هي أحسن. والاً إذا كان عندهم كلام، الشعب واقف لهم بالمرصاد. يحيا الشعب. يعيش الشعب. يعيش الطريفي. يسقط محجوب. وخصوصاً يسقط جنى إسماعيل مقطوع الطّاري إن شاء الله ما تتعدل عليه. صاحْبي أخو اخوان قروشه كلها مودُّرها في العَرقي[1]. محجوب راجل حبَابُه عشره. راجل ما يتفضل عليكم خدم البلد وسرق ونهب. باع لي البرسيم الحوض بين خمسين

(١) الخمرة السودانية الشعبية المصنوعة من التمر.

قرش. قلت له أشاركك في البقره قال شراكه مش عاوز. يا جماعة صلوا على النبي. الحلال بيِّنْ والحرام بيِّنْ. فضُّوا الحكاية دي خَلّونا نروح لي بيوتنا».

كان اضحك الضاحكين عشا البايتات نفسه. قال وهو يكاد يختنق من الضحك:

«أدِّيت كل إنسان حقه. عَدْل ولاَّ مو عَدْل؟» وفجأة في غمرة المرح تلك قال:

«يا جماعة في سر عاوز أقوله ليكم. ما قلته لجِنس إنسان».

حصل على انتباههم بعد مشقة، فقال:

«الشتاء الفات في أمْشير. الدنيا برد وهبوب بين العشا والفجر. ما تقولوا حلم، أبدا. شوف عيان زي ما أنا شايفكم هالسّاعه. وحياة خُوتِْكم يا اخوان، أنا صاحي والفانوس موقد، متغطي بتلاتة بطاطين والريح بَرّه تصرخ وايْ وايْ وايْ. الشبابيك مقفوله والباب مقفول. بسم الله الرحمن الرحيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وقف فوق راسي. قال لي بنهره «قوم». شيخنا الحنين اللَّهم ارضى

عنه. وقت الخوف راح مني عاينت له زين. يا هو ذاته ذاته لابِسْ عبايْتُه وشالُه فوق كتفه وابريقه الْ ما يغْباني في إيده. قال لي قوم قلت له على وين يا شيخنا؟ قال لي امش القلعه. قلت له الخرابات؟ قال لي ما هَا[2] خرابات. امش القلعه تلقى قصر. قلت له قصر منو؟ قال لي قصر بندرشاه. قلت له بندرشاه يبقى منو؟ قال لي واحد من سلاطين الدنيا الزائله. زمان زمان كان موجود. كان عنده أملاك وأطيان ما ليها أول ولا آخر. أراضيه كانت الخيل تزمح فيها ما تصل حَدَّها. تمْره وعيشه وقمحه كان يغلبوا في لَمُّه. كان عنده ولد واحد وحداشر عَبْد. امش القصر فوق القلعه تلقى باب مفتوح ادخله وامشي لحد ما تدخل ديوان. تلقى بندرشاه وولده ينتظروك. عندهم أمانة على شانك. لا تسلم عليهم. لا تتكلم معاهم. لا تتلفت يمين ولا شمال. ادخل استلم الأمانه وامرق. الحذر ثم الحذر تقول بِمْ ولاً بفِم. تدخل دار الهلاك وال يكوسَك ما يلقاك. الأمانة مالْ. مالك حلالكْ. بندرشاه ظنَّ نفسه

(١) ليست.

يرث الأرض ومَنْ عليها. الأرض أرضك وأرض ألضعفاء بعدك. قوم. قوم.

يا زول مشيت القلعه لقيت زَيْ ما وصف لي شيخنا للحنين. قصر وين وين إني آمنت بالله منوِّر تقول بابور بحر وحِسْ غناء ورقيص وضحك. مشيت لا اتلفتّ شمال ولا يمين وزَيْ كأن بنات يجرّني لي جاي ولي جاي. الديوان لا شك كان مليان نسوان، ما اتلفت ولا عاينت لكين الريحة ضاربة مَحْلب وصندل ما تغبَاني. لقيتهم الإتنين جالْسين جَلسة قُدْرَة الله كأنه ملِك ومعاه وزير. الراجل الكبير قال لي «أهلاً وسهلاً ومرحباً. أهلاً بابننا عشا البايتات، إجلس اشرب واطرب». ما رديت عليه. مدّيت إيدي وعقلي يحضر ويغيب. الولد الصغير نطق قال «انطق بالكلام. رُدْ علينا السلام». عليك أمان الله. قرَّبت اتكلم لكين ستَر رب العباد. سكتّ ساكِتْ. الراجل الكبير صفق بإيديه. جاتْ بنيَّه زي الحورية. نهْدها طالع يا دوب، زي تمرة اللالُّوبْ. عريانة جَلْ، تتقصّع وتتقدَّل. الكفل زي السَّحلية، والبطن زي جَنَايْن الشايْقِيَّة. مسكتني من شِيتي، وقالت لي هَاكْ هِيتي. رقَدَت وفتحت فخذيها، شفت الْبيها وال عليها. قالت لي يالله يا

شاكي تعال وارقد بين أوراكي. تلقى مُناك وتنال هَناك. آخ آخ يا اخوان من وَقْدة النِّيران. شُفت بِي عيني سِكّة النجاة وسكة الهلاك. ولولا عناية الله كنت رُحت في ستين داهية وما همّاني. اتعوذت في سري من الشيطان الرجيم وقلت يا منجي، ومديت إيدي صُمٌّ بُكم زي ما وصّاني شيخنا الحنين. وقف الولد الصغير وضرب رجله بي زعل ونهر البت مشت في حال سبيلها.، الراجل الكبير ضحك وقال له لا تغضب يا مريود. دا وارث وطالب حق، سلِّمه الأمانة وخليه ينصرف بلا شر. الولد سلمني صرة أخدتها ومرقت زي ما دخلت لا سلام ولا كلام ولا بم ولا بفتم. وقت فُت لقيت نفسي عند الجامع، بردان وعرقان أبكي زي النّاقة على الفصيل. كان الفجر قرّب يطلع. ما فتحت الصرة ولا عاينت فيها. حَطّيتها عند المحراب. طلعت الميدنة وأنا أبكي ما أعرف على إيش ولأيش؟ من الحزن ولا من السرور؟ قَرّيت الأذان يا اخوان طلع الصوت ما هو صوتي. صوتٌ مليانٌ بالأحزان. ناديت فوق البيوت. ناديت للسواقي والشجر. ناديت للرمال والقبور والغياب والحضور. ناديت للضالين والمهزومين والمكسورين للصاحين وللسكرانين. ناديت للنّصارىٰ والمسلمين. ناديت

الله أكبر الله أكبر وأنا أبكي وأنوح ما أدري أبكي على الْ لقيته ولاً على الْراحْ مِني. آخ آخ يا جماعة على تلك الليلةْ. سمعت بأداني هبوب أمشير تردد أذاني، زي كأني أنا سعيد الكحْيان التغبان، بندر شاه زماني، أقول لأهل الدنيا والآخرة حي على الهلاك، حي على النجاح حي على الضلال، حي على الفلاح. حسيت وأنا فوق ميدنة الجامع عند الفجر، كأن الملايكه والشياطين، قالوا بصوت واخد آمين آمين. نزلت وجدت الجامع مليان بشر، محمود ومسعود، خير الدين وسيف الدين، محجوب وعَلُّوب، محيميد وأبو الوليد، ود حسب الرسول وود بكري وود رحمة الله وود مفتاح الخزنة ناس ما دخلوا الجامع من قبل. زي كأن البلد كلها اجتمعت في المسجد عند الفجر. كنت عارف يا اخوان أنهم كلهم حضروا لأنهم سمعوا الصوت. ناداهم المنادي بلساني. كانْ في شي عجيب داك الفجر. أقيمت الصلاة وأنا دموعي نازله شل شل. الإمام قرأ سورة الضحى سمعت بكاء عبدالحفيظ وبعدين سيف الدين وبعدين محجوب ومحيميد، وأنا أبكي مَعاهم وأجرّهم وراني، لحد ما كل المصلين بكوا الدمع السخين في داكْ الفجر لأيش وعلى أيش؟ آخ آخ. وكان عند

الشباك اليسار راجل غريب ليه علاقة بكل ما جرى ودار، يختفي ويبين لحد ما الناس قالوا عليكم السلام. اختفى ولا خبر ولا أثر ومحيميد المسكين يصرخ بطول الحس، يقول الشخص الكانْ هنا رَاحْ وِينْ؟

في البيت ضويت المصباح قبل ما يبين ضو الصباح. فتحت الصره لقيت أشكال وألوان، كأنها كنوز الملك سليمان. جلّت قدرة الله، قلّبتها في إيدي بدون أي بهجه ولا انشراح كأني اقلب في رماد. رميتها في مكان في البيت ما أدري وين، ونمت النهار بطوله نوم كأنه نوم الأموات. صحيت من النوم وأنا أبكي الدموع الغزار، ما أعرف لأيش وعلى أيش.

كان في صوت سعيد وهو يقص تلك القصة شيء حرك شجون أولئك الرجال فأخلدوا إلى صمت غريق ممتد، قطعه أخيراً صوت عبدالحفيظ وهو يقول:

«الله حي».

وخيم الصمت من جديد، وتنهد محجوب وسعيد وأحمد. وفجأة ضحك ود الرواسي مقهقهاً وقال:

«يا زول. عليك أمان الله كلام أضغاث أحلام تضحك على دقوننا يا عشا البايتات بي كلام زي حجى الزمن السالف؟ يظهر طلوع الميدنة في الفجر لخبط مخك. باكر تجي تقول لنا إنك نبي الله الخضر ولاّ المهدي المنتظر».

حينئذ ضحكوا جميعاً ما عدا محيميد، وقال أحمد إسماعيل الملقب بأبو البنات:

«دا كلام سكر. لازم عشا البايتات كان شالِعْ. قَسَم الواحد يشرب قزازَة العَرقي يبقى زي اسمه منو دا؟ شهبندر ولا بندر شاه».

لم يعترض سعيد، ولم يزد على أن قال:

«آخ ثم آخ ثم آخ».

محيميد هو الوحيد الذي اعتقد بتأثير الضوء الغامر في تلك الليلة، ان سعيد عشا البايتات قد رأى وسمع. وإذا كان حلماً، فإنه سيربو مثل طوفان حتى يغرق البلد كلها.

وقال عبدالحفيظ:

«الفجر قرب يطلع. يالله يا عشا البايتات، قوم إذن».

طَفا سعيد من صمته مسروراً منشرح الصدر، وقال لهم في تلك الحالة:

«إيه رأيكم نقوم كلنا نحضر صلاة الفجر وأصله اليوم يوم جمعة. بعد الصلاة كلكم معزومين فطور عندي في ديوان جناب الناظر. عندي حَمل عديل ندبحه ونتْبسط عليه».

أول من قبل الدعوة أحمد الذي قال:

«إذا كان صلاة بعدها خروف، ما في مانع».

رفض الطاهر ود الرواسي، ورفض سعيد ورفض محيميد ولكن محجوب قال فجأة:

«والله كلام عشا البايتات معقول. مِنَّها صلاة ومنها عزومة. يالله يا جماعه».

كان صوته مثل تلك الأيام، حين كان ريِّس المركب يأمر وهم ينفذون. في تلك اللحظة التأم شملهم كما لم يحدث من زمان طويل. لذلك قال الطاهر الرواسي، وهم يتحركون في قبَس الفجر، بين النور والظلام:

«رحمة الله عليك يا وَد الريّس».

قاموا وساروا وراء سعيد عشا البايتات، وهم ذاهبون إلى الصلاة، كمن يسير إلى وليمة.

***

انفض السامر وقد أصاب الدم المسفوح كل أحد برشاشه. مات الحب أو كاد يموت. كانت الشمس تشرق وتغرب،والقمر يطلع وينزل، والريح تهب، والنهر يجري، والبلد تنام وتصحو. كل شيء فقد طعمه ومعناه. وبعد شهر من وقوع الحادث وجدت ثلاثتهم في بيت جدي، مستلقين على تلك الأسرة، هامدين لا قيل ولا قال، لا كلام ولا سلام. لبثت وقتاً طويلاً أنتظر وأنا أقلب الفكر محاولاً فهم مغزى ما حدث. تذكرت ذلك الضحى يوم جاء مريود يبيع ويشتري بتفويض من بندرشاه. ما أشبه المعجزات بالكوارث.

خرجت عن طوري متعمداً محاولاً استفزازهم. صرخت فجأة:

«بندر شاه هو المسؤول. لولاه ما حدث ما حدث».

كل واحد منهم رد على وقاحتي بحركة عصبية خفيفة، وظلوا صامتين.

القتلى كثيرون فما بالهم يرثون لقتيل واحد دون الباقين؟

«يقال إنهما قاوما مقاومة خارقة».

ورد ود حليمة فوراً بغضب:

«من سمع ومن رأى حتى يقول؟».

كنت أريد أن أخرجهم عن صمتهم بأي وسيلة. قلت:

«سمعت الناس يتكلمون».

لكنهم أخلدوا إلى صمتهم، وقال جدي:

«لعنة الله عليهم».

حمد ود حليمة، كان أقرب الناس إلى مركز الفوضى في ذلك الضحى، ولا بد أنه يطوي صدره على أحاسيس مدمرة. إذا تكلم هو فسيتكلم صاحباه. قلت موجهاً كلامي له:

«انت كنت أول من دخل على بندر شاه أم لا؟».

زفر مختار ود حسب الرسول الهواء من فمه بعنف وتأوه ود حليمة، وقال جدي:

«زمن ملعون».

لا بد أن الساعة تبدو لهم غاب[1] قوسين أو أدنى، فكرت في أسى، إن أولئك الرجال الثلاثة، يفضلون الموت في تلك اللحظة على الحياة. امتد بهم الأجل حتى رأوا العالم يغرق في طوفان الاثم. بعد حادث بندر شاه، مات كثيرون من جيلهم فجأة، وكان جدي كلما سمع بموت ند من أنداده يتأوه في حسرة. وقد حدثت بالفعل أمور عجيبة بعد ذلك الحادث. الكاشف ود رحمة الله رغم تقدمه في السن قرر فجأة أن يهجر البلد. رفض الإمام الصلاة بالناس وقال إنهم جميعاً ملعونون لا تنفع فيهم صلاة ولا وعظ ثم سافر إلى مكة ليموت فيها. زوجة بكري بعد خمسين عاماً من الستر، خرجت من دار زوجها حاسرة الرأس وأقسمت ألا تعود. ثار من لا يثور وشاجر من لا يُشاجر، وقال الناس إن الشياطين أخذت تمشي في الساحات والشوارع

(١) قاب.

عياناً بياناً في وضح النهار. قلت لهم:

«يقال إنهم ربطوهما بالحبال، كل منهما على كرسي، في صدر الديوان».

تأوه ود حسب الرسول وتأوه ود حليمة وقال جدي:

«لعنة الله عليهم أجمعين».

قلت لهم:

«يقال إنهم ضربوهما بسياط من عروق السنط».

استوى جدي جالساً فجأة وقال:

«يعني مش خنق أو طعن؟».

قلت لهم:

«يقال إنه قاوم كالأسد وكاد يغلب أولاده الأحد عشر».

قال مختار ود حسب الرسول بصوت جريح مكتوم:

«كان عملاقاً دائماً. كان من طينة أخرى.

نعم، كان نسيج وحده دون شك، وقد صاغ حفيده على صورته ليكون امتداداً له، وخوّله مطلق السلطان على

أبنائه الأحد عشر، فحكماهم بالقوة والمكر دون حب. كل ذلك اتضح فيما بعد. كانت لهما طاقة فوق طاقة البشر.

قلت لهم:

«يقال إن مريود كان يحدد لكل منهم عمله، ويحدد له جزاءه، لا تفوته صغيرة ولا كبيرة. كل ليلة تنعقد محكمة في الديوان الكبير. يجلس بندر شاه وإلى يمينه مريود على كرسيين عاليين على منصة في صدر الديوان. يصدران الحكم معاً، ويكون العقاب بالسياط، يفعل ذلك مريود وبندر شاه متربع على كرسيه يسمع ويرى. هل كنتم تعلمون ذلك؟».

لم يردّ أحد على سؤالي، وتعجبت كيف يكون الإنسان أسود اللون وأزرق العينين، وكيف ينجب رجل واحد أحد عشر إبناً، ولداً بعد ولد، ثم يختار حفيده الأوحد دون سائر أبنائه ظلاً له على الأرض. إما أن ذلك لم يحدث حقيقة، وإما أنه حدث في زمان سحيق أيام كانت تنزل الكوارس والمعجزات. قلت لهم:

«يقال إن الجد والحفيد كانا يشربان الخمر معاً، وكانت

تغني لهما الجواري ويرقصن عاريات بالليل في الديوان الكبير أو وسط البيوت. هل كنتم تعلمون ذلك»؟

لم يرد أحد على سؤالي، وتخيلت بيوتهم متلاصقة كأنها قلعة حصينة على ربوة عالية، بعيدة عن بقية الحي. كانت عالماً قائماً بذاته. قلت لهم:

«يقال إن مريود كان يتدخل في أخص خصائصهم بتفويض من بندر شاه. لم يكونوا أحراراً حتى في تزويج بناتهم».

«قال جدي أشهد ألاّ إله إلا الله».

وقال حمد ود حليمة «وأشهد أن محمداً رسول الله».

قلت لهم:

«يقال إن مريود كان يوقظهم مع الفجر ويغلق باب الحوش عليهم عند غروب الشمس، يسوقهم كالغنم للأفراح والأتراح، هو وبندر شاه».

تململوا في رقداتهم ولم يقولوا شيئاً. قلت لهم:

«يقال إن بندر شاه حرم أولاده جميعاً من الإرث وسجّل

كل أملاكه باسم مريود وقال إنهم جميعاً لا يساوون قلامة ظفر مريود».

صرخ ود حسب الرسول فجأة وقد استوى جالساً:

«تسمع كلام الأرزال، ناس ود جبر الدار وود مفتاح الخزنة وود رحمة الله. لأن قضاء الله حصل يقولوا بندر شاه كان كيت وكيت.! بندر شاه كان رجل ولا كل الرجال. كان رجل من معدن آخر. بندرشاه يشرب الخمر؟ إني آمنت بالله. بندرشاه في حياته ما شرب خمر ولا عرف جنس رزاله».

وفجأة قاموا ثلاثتهم، .وخرجوا يتوكأون بعضهم على بعض وتركوني جالساً في الغرفة وحدي، كأنني في مقبره. كنت غاضباً وكنت حزيناً وكنت في حيرة عظيمة.

***

قال الطاهر ود الرواسي وهو مستلق على ظهره ينظر إلى السقف:

«تعرفوا يا جماعة الدنيا دي ماشيه بالعكس. أنت يا محيميد كنت عاوز تبقى مزارع بقيت أفندي. ومحجوب كان عاوز يبقى أفندي بقي مزارع».

كانت حالة محجوب قد تحسنت في الآونة الأخيرة ولم يعد يشكو من الأزمة، وانقطع عن صلاة الفجر في الجامع.

ضحك وقال:

«عليك أمان الله أنا ان كنت لحقت مشيت في حكاية التعليم دي، اليجري وراي هسّع ما كان يلحقني. كنت بقيت مدير ولاّ وزير».

وقال الطاهر:

«حكاية وزير هينه. الزمن دا أيًا من كان ممكن يبقى وزير. جملة الأيمان الطريفي ولد بكري إذا ما بقي وزير، ما أبقى أنا ود أبوي».

وقال محيميد:

«من وين يجيبوا له وزاره؟ البلد ما فضل فيها جنس وزاره».

وقال الطاهر:

«ما بيغلبو حيله. يعملوه وزير الجمعيات الخيرية أو وزير الأجزخانات أو وزير الوابورات. أي شي من جنس اللغاويص البنسمع بيها».

وقال محجوب:

«الطريفي ولد بكري، الجمعيّة التعاونية ما هو قادر عليها. كمان عاوز تعمله وزير؟»

وقال الطاهر:

«انت تفتكر الحكاية بالكفاءة؟ الموضوع كله أونطه في أونطه. المهم تبقى فصيح لسان وقليل إحسان. بس كتّر من يحيا ويعيش. شوف الحزب القوي ادخل فيه. شي خطب وشي عوازيم وشي براطيل. شويتين شويتين تلقى نفسك بقيت نايب في البرلمان. بعد داك أرقد قفى».

قال له محيميد:

«وإذا كان بعد ما دخلت البرلمان ما عملوك وزير؟ تعمل شنو؟

قال ود الروّاسي:

«إذا ما عملوني وزير جملة الأيمان اعمل عليهم انقلاب».

قال محجوب:

وبعدين؟

قال الطاهر:

«وبعدين كمان شنو؟ ما خلاص. أرقد قفى. أي حاجة عاوزها أضرب الجرس. ادخل يا فلان وامرق يا علان. فلان، عينتك حكمدار. فلان سويتك باشمفتش. فلان حكايتك بايظه معاي، دخلتك السجن. فلان ما توريني خلقتك. فلان حبابك عشره. وقتين امرق بالعربية الشفرليت وسط البلد الناس تهتف، يعيش الطاهر ود الرواسي. يحيا الطاهر ود الرواسي. خلاص بقيت حاكم عام».

قهقه محجوب بالضحك وقال:

«أي كان كدى سجم خشمك. أنت قايل الحكم ضرب جرس وادخل يا فلان وامرق يا فِرْتِكانْ؟

وقال محيميد:

«لمعلوميتك العربية ما ها شفرليت. الشفرليت جنبها زي الحماره جنب الحصان».

قال ود الرواسي:

«أي لا حول ولا. كمان في أكبر من الشفرليت؟».

قال محيميد:

«أي نعم».

وقال الطاهر:

«قدر ايش؟».

وقال محيميد:

«قدر الديوان دا».

وقال الطاهر:

«أي لاحول ولا قوة. عليك أمان الله كان كدى أنا من باكر اعتبروني مرشّح للرياسة».

ضحكوا ثلاثتهم، وهم مستلقين على تلك الأسرة نفسها، في ذات الديوان، عند القيلولة. وقال محيميد:

«يا زول إحمد ربّك. شنو مدير وشنو وزير؟ أنت أحسن منهم كلهم. همك فاضي لا بيك ولا عليك:

تنهد محجوب بحرقة وقال للطاهر:

«صدقت والله. الواحد ما دام ضامن عشا ليلته، عليك أمان الله ما يهمه حكمدار ولاسردار. الكلام أنت يا محيميد. ضيعت عمرك في التعليم ولفيت ورجعت لي ود حامد السجم دي بخفي حنين. كأنك بقيت أفندي بالغلط. من زمان وأنت نفسك في زراعة الرماد دي».

تنهد محيميد أيضاً، وهو مستلق على سرير جده عند القيلولة، وقال بعد تفكير طويل:

«كلامك صحيح. محجوب كان حقه يمشي في السكه دي. محجوب عنده الطموح. عاوز السلطه. أنا عاوز الحقيقة. وشتان بين البحث عن السلطة والبحث عن الحقيقة».

ضحك ود الروّاسي ساخراً وقال:

«يعني هسّع جيت لي ود حامد المسجّمه دي على شان فيها الحقيقة؟ والله حكاية».

وقال محجوب:

«الحكاية ماها حقيقة. الحكاية بلاده. أنا ومحيميد كنا دفعة في المدرسة الأولية. تتذكر؟ أنا كنت أذكى واحد في

الفصل. محيميد كان ورا. أبوي رحمة الله عليه قال كفاية. بلاش مدارس وكلام فارغ. السنة دِيكْ القمح الناس غِلْبوا في حَشُّه. قال يالله تعال اترزع معانا زيك زي غيرك. محيميد أبوه الله يطراه بالخير قال نفس الكلام. جده صمم رأيه قال أبداً. يمشي في سكة المدارس لحد ما يشوف آخرتها. وآخرتها شنو؟ محيميد لف ودار ورجع لي الزراعة وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا».

وقال الطاهر:

«كان رجل جبار متسلّط إذا صمم رأيه رأسه والسيف. رحمة الله عليه».

وقال محيميد:

«وبعد داك كل شيء مشي بالعكس. الإنسان لازم يقول «لا» من أول مرة. كنت فرحان في ود حامد. ازرع بالنهار وأغني للبنات بالليل. اشرك للطير وأبلْبِطْ في النّيل زي القرنْتي. القلب فاضي وراضي. بقيت أفندي لأن جدي أراد. ووقتين بقيت أفندي كنت عاوز أبقى حكيم بقيت معلم. وفي التعليم قلت لهم أشتغل في مروى قالوا تشتغل في الخرطوم.

وفي الخرطوم قلت لهم أدرّس الأولاد قالوا تدرّس البنات. وفي مدرسة البنات قلت لهم أدرس تاريخ قالوا تدرّس جغرافيا. وفي الجغرافيا قلت لهم أدرّس أفريقيا قالوا تدرّس أوروبا. وهلم جرّا».

استغرق ود الرواسي في الضحك ثم قال:

«ناس ما عندهم نظر. عليك أمان الله ان كنت أنا كنت عملت عليهم انقلاب».

قال محجوب:

«يا ريت نلقالنا انقلاب يطير الطريفي ولد بكري من رئاسة الجمعية».

وفجأة ورد السؤال. قام ود الروّاسي من رقدته واستوى جالساً، ونظر إلى محيميد وقال له:

«انت يا محيميد قطعاً أصغر مني ومن محجوب. ما أظنك بلغت سن المعاش. اشمعنى نزلوك المعاش قبل وقتك؟».

تذكر محيميد حكاية الصلاة وضحك. وقال محجوب:

«صحيح. الحكاية شنو؟».

قال محيميد:

«وقتين طفح الكيل مشيت لأصحاب الشان قلت لهم خلاص. مش عاوز. رافض. أدوني حقوقي عاوز أروح لي أهلي دار جدي وأبوي. أزرع وأحرث زي بقية خلق الله. اشرب المويه من القلة وآكل الكسرة بالويلة الخضراء من الجروف. أرقد على قفاي بالليل في حوش الديوان أعاين السماء فوق صافية زي العجب والقمر يلهلج زي صحن الفضة. قلت لهم عاوز أعود للماضي أيام كان الناس ناس والزمان زمان. قلت لهم خلاص استلموا عهدتكم وأدوني حقوقي فهذا فراق ما بيننا».

قال ود الروّاسي:

«وشن قالولك يا محيميد؟ قالوا الحكام أولاد البلد صعبين أجارك الله. زمان الإنجليزي كان ينهرك ويقول لك أتلا بازّه. هسّع قالوا أولاد البلد يضربوا بالشلّوت».

قال محيميد ضاحكاً:

«ما في ضرب ولا شلاليت. كل شي بي نظام وذوق. الاجراءات تتم حسب القوانين والأصول. وجوابات» «يؤسفنا أن نخبركم، ويسرنا أن نعلمكم» قعدت في البيت شهر. بعدين سوّوا الحكاية بالتي هي أحسن. وأصله كان باقي لي سنة، ضموها للخدمة والسلام عليكم، عليكم السلام.

«وأنت ما دام أصلك طالع، ما ضربت لك واحد كفين ولا تلاته تفش مغصتك؟».

قال محجوب:

«محيميد ما هو زول ضرب».

وقال محيميد:

«إه لزوم العنف؟ الحكاية بالعقل».

«والوليدات والبنيات يا محيميد؟».

وقال محيميد بشيء من الحسرة:

«الأولاد أخدتهم الحكومة، والبنات أخدوهم الأفندية. حلال عليهم. دخلوا في عالم العربيات والتلاجات والدرجات. عاوزين يجوا هنا أهلاً وسهلاً، عاوزين يقعدوا

هناك اعتبرهم مني هديّة لزمن الحرية والمدنية والدمقراطية. أما أنا يا ود الروّاسي، أفندي بالغلط، مزارع زي ما قلت، هام على وجهه ورجع لنقطة البدء. رجعت عشان أدفن هنا. أقسمت ما أعطي جثماني أرض غير أرض ود حامد».

ضحك ود الرواسي وقال:

«انت يا محيميد اما شاعر أو مجنون، أو خرف الشيخوخة. لكن أهلاً بيك ومرحبا. ود حامد مسجّمة ومرقّدة. في الصيف حرها ما يتقعد، وفي الشتاء بردها أجارك الله. النّمتّي وقت لقوح التمر، والضبّان وقت طلوع المريق. فيها الدبايب والعقارب ومرض الملاريا والدسنتاريا. حياتها كد ونكد ومشاكلها قدر سبيب الراس. اسألنا نحن خابرنّها زين. الولادة بي كواريك[1] والموت بي كواريك. جنابك قضيت حياتك كلها منجعص في مكتب تحت المروحة. المويه من الحنفية والنور بالكهرباء والسفر درجة أولى. هلاّ هلاّ. ما وقعت قرّاع عز الشتاء. ما ركبت الحمير لا من جَعَبَاتَكْ ورسن. ما قعدت تعاين للتمر لا من

(١) صراخ.

ينجض[1] يالله السلامة تصب عليه مطره ولا تحته هبوب. ما حرست القمح وإيدك فوق قلبك يصيبه طير ولاً دَانقيلْ. وهسَّع وقت الصعيد جاب الهبوب مقلوبة. جيت تكوُس رقدة الديوان تعاين للقمر يلالي في سابع سما. مرحبْتين حبابك وألف اهلاً وسهلاً».

قال محجوب ضاحكا:

«عفارم عليك يا ود الروّاسي».

وضحك محيميد كما لم يضحك منذ أعوام، ضحكة نحيلة خبيّة منطلقة وقال:

«انت يا ود الروّاسي أشعر مني».

❋❋❋

قدرت أن الطريفي لا بد أن يكون في السادسة والثلاثين، أو السابعة والثلاثين، فقد كان في نحو الثانية عشرة في عام عرس الزين. كان محجوب في الخامسة والأربعين حينئذ، ذلك أعلمه علم اليقين، وكان أحمد الذي أصبح الآن

(١) عندما ينضج.

أباً لبنات كثيرات، وبناته صرن للزواج، كان عامها في نحو العشرين. تمعنت وجهه وهو يجلس أمامي في برندة الديوان، خالفاً ساقاً على ساق، ممسكاً بفنجان القهوة، وقت الضحى. لم يكن في الوجه شيء يلفت النظر، ما عدا العينين الضيقتين الذكيتين، وتلك الابتسامة الساخرة في ركن الفم الأيسر، تحدث تناقضاً بين ما يقوله وما يعنيه. كان أيضاً شيء آخر، ذلك الشيء الذي تسبغه السلطة على من في يدهم السلطة؛ مزيج من الإقدام والخوف والبذل والطمع والترقب والتماسك، والصدق والكذب. كأنك إزاء ممثل يؤدي دوراً، وأنت تعلم أن الذي يجري أمامك ليس حقيقة، ولكنك لا تملك إلا أن تستسلم للوهم. كان الطريفي مدركاً تمام الإدراك طبيعة الدور الذي يؤديه.

ختم خطبته قائلاً:

«الدنيا لازم تمشي لي قدام مش لي ورا.

لا شك أنك أنت بالذات تدرك ذلك. محجوب أدى دوره خلاص. نحن كمان نؤدي دورنا».

تذكرت أن الطريفي ليس ابن اخت محجوب وحسب،

ولكنه أيضاً زوج ابنته.

قال أيضاً:

«محجوب وجماعته ظنوا أن ليهم حق إلهي في السلطة. نسوا أن البلد اتغيرت. حاجات كتيرة حصلت. ود حامد ما عادت ود حامد قبل تلاتين سنة. ظهرت أجيال جديدة ومطالب جديدة. زمان كان لما الباخرة تظهر الناس يتلموا تحت الدومة ويتفرجوا عليها كأنها معجزة. دلوقت الوضع اتغير».

تخيلته وهو صبي، يصب لنا الماء في ديوان محجوب. كان يؤدي تلك الواجبات التقليدية بلا اكتراث، لا يقول «حاضر» ولا «نعم»، يجعلك تحس بأن عليك أن تصب الماء بنفسك. يا ترى هل كان يعلم حتى في تلك السن المبكرة، أن كون إنسان أسنّ من إنسان، لا يعني شيئاً؟ وكان معلموه في المدرسة يقولون إنه تلميذ ماكر، يتزعم أي حركة تمرد أو شغب، وينجو من العقاب. دائماً يفعل هو الخطأ وينال العقاب غيره. كأنما الأقدار كانت تعده لهذا الدور. أيام عرس الزين، أوكله محجوب بتوفير العلف لحمير الضيفان، وكان هو أمْيَل إلى توفير الخمر للشاربين، ولما انتبه محجوب،

وجد الحمير بلا علف، وبحثوا عن الطريفي فوجدوه يسكر مع السكارى. محجوب انتهره وصفعه ولم يسكت الطريفي ولكنه صرخ في وجه محجوب وقال له «انت تفتكر نفسك مين؟» وترك العرس ولم يشارك فيه. وكان منذ صغره يعمل ما لا يُعمل. كان يخلف ساقيه بحضور من هو أكبر منه سناً، ويتثاءب بصوت مسموع حين يقص على ود الشايب إحدى أقاصيصه، وكان يزج نفسه في أحاديث الناس الكبار ويقول رأيه صراحة، ويكون دائماً معارضة أو تسخيفاً لرأي رجل في مقام والده. كان ثمة إجماع على أنه ولد ما فيه فايدة، وكان محجوب يقول لأبيه في المجالس «الطريفي ولدك، ربنا يكفينا شره». ورغم ذلك، كان دائماً يدهش الناس بتفوقه وإتقان كل عمل يعمله باختياره. وله في تاريخ ود حامد مواقف بطولية لم تنل التقدير الكافي من الناس، لأنه كان ما يلبث أن يعمل العمل المجيد حتى يعود فيحطمه بعمل شائن في نظر الناس، كأنه يفعل ذلك عمداً، وكأنه لايبالي قال له الناس أحسنت أم قالوا أسأت. كانوا في حيرة من أمره ينظرون إليه بمزيج من الإعجاب والحذر.

قال الطريفي:

«الناس عاوزه قائد عارف طبيعة دوره في البلد. محجوب كان عامل نفسه شيخ عرب. تهويش بدون فايدة وشغل ما فيش. أنا عارف محجوب صديقك الحميم، لكن دي الحقيقة».

تذكرت أنه في فيضان الدميرة الكبيرة أنقد أمونة بنت التوم من الغرق، وأنه ظل ساهراً طول الليل، يسبح بين الجزيرة والشاطئ، يفك بقرة مربوطة هنا، ويقيم حاجزاً هنا، ويرفع شيئاً وقع هنا، ويمد يد العون لفريق يطلب النجدة. وفي الصباح، والناس يقاومون الفيضان مجتمعين، كان هو نائماً في داره. يقولون وهم يحصون من غاب ومن حضر:

«الطريفي ولد بكري الله يخيّبه. في يوم متل دا الناس كلها شغّاله وهو نايم على قفاه في البيت». أمونه بنت التوم قالت لهم خلاف ذلك، ولكنهم أبوا أن يصدقوها. وكان سعيد عشا البايتات يقول في المجالس:

«جُمْلة الإيمان الطريفي ولدْ بكري راجل حبابُه عشره. لكين أنتو عميانين».

يضحك على ود الشايب مع جملة المستهزئين ويقول:

«عشا البايتات عامل محطة إذاعة ودعايات لي ولد بكري. المتعوس وخايب الرجا».

ومع ذلك اجتمعوا ذات ضحى، تحت السيالة الكبيرة وسَط البلد، وانتخبوه زعيماً لهم.

استأنف خطبته قائلاً:

«موضوع القرابة والصداقة ما ليه أي دخل. الموضوع موضوع مبادئ».

قلت له:

«مبدأك شنو؟».

قال بلهجة صلفة، كما خيل لي وقتها، ولعلني أخطأت التصور:

«مبدأي انتشال البلد دي من وهدة التخلف والتأخر. لازم نماشي ركب الحضارة. العصر عصر علم وتكنولوجيا».

ثم نظر إلي بتحد وسألني:

«وأنت وضعك شنو في الحاصل دا؟».

ضحكت، فغاظه ضحكي، وقال بصلف أكثر، كما خيل لي:

«الموضوع جد مش هزار. وضعك شنو؟».

كان يمكن أن أسخر منه، في تلك الظروف والأحوال، ولكنني قاومت وصمت. ولعلّه لم يدرك الأسباب التي تجعلني أعطف عليه بصفة خاصة، فهو ابن مريم، وكان محتملاً أن يكونْ ابني لولا أن جدي قال لا. وقد أيدت أخاها ضده وتركت الدار وأقامت عند محجوب مع أنه ابنها البكر وكانت تحبه جداً وتفخر به. لم تره بعد ذلك. ثم ماتت في شهر أمشير، ودفنّاها قبيل غروب الشمس. كان وضعاً مؤلماً. كان الطريفي يبكي كما لم أر إنساناً يبكي، وأمسكناه بالقوة، ود الرواسي وعبدالحفيظ وأنا، حتى لا يدخل القبر معها. مسكين. هو أيضاً يتعذّب. الإنسان مهما بلغ به الطموح فهو ابن أنثى. ولعله رأى انعكاسات تلك الأفكار على وجهي، فاعتدل في جلسته فجأة، وكانت في يده سيجارة فأطفأها. تململ في كرسيه. تنهد بصوت مكتوم وأطرق يتفحص التراب. سألته، وأنا أترفق به بسبب كل ما ذكرت:

«تذكر داك الفجر في أمشير؟».

رفع رأسه مذعوراً وقال:

«أي فجر؟».

قلت له:

«الفجر المشهود، لما الجامع اتملى بالمصلين على غير العادة. في أمشير بعد ما دفنّا أمك مريم بالليل».

أطرق ينظر في التراب ولم يجب. قلت له:

«حملناك غمران من المقابر بعد الدفن. هل تذكر؟».

قال بحدّة:

«لا أذكر؟».

فقلت:

«فقدت الوعي على طرف القبر وصحيت على بكاء المصلين في الجامع عند الفجر. بين النوم والصحو حلمت حلم. هل تذكر؟».

أجاب بعنف:

«لا أذكر».

قلت له:

«سمعت صوت».

قال:

«ما سمعت أي صوت»؟.

قلت له:

«ناداك مُنادي».

أجاب بانفعال:

«ما ناداني أحد».

قلت له:

«هل تذكر الْ حصل في داك الفجر؟ تذكر بكاء المصلين؟ تذكر أنك بكيت حتى كادت روحك تطلع؟».

رفع رأسه وجمع أشتاته بجهد واضح، وكان قد تزعزع، وقال بصوت مرتعش:

«لا أذكر».

لعلني قسوت عليه، ولكن أحد أسباب رجوعي، أن

أعلم حقيقة الأمر قبل فوات الأوان، فأنا أيضاً عبرت ذلك الجسر، وقد دفنت أشياء غالية، ورأيت أشياء تنبت كما تتشقق القبور يوم البعث، ولا بد أن ندرك العلاقة بين شقي الرحى. قلت له ولعلني قسوت عليه، دون قصد، في تلك الظروف والأحوال:

«أنا أخبرك بالحصل. جاءك رسول. قمت في غمره، وسرت وراءه في الظلام. رأيت أمامك قلعة زيْ كأن الظلام انشق عنها. أضواؤها تظهر وتغيب. تبعت الرسول فإذا ضجة وحس غناء ورقيص. كأنْ في حَفل يُقام وسط ذلك الظلام. انفتحت أبواب ومشيت في دهليز بعد دهليز لحد ما وصلت قاعة واسعة مضاءة بالمصابيح والقناديل. في صدر المكان كان في واحد على هيئة اثنين. هو هَشَّ لك، وهما رحَّبا بك، وقال لك الصوت «أهلاً بالطريفي ولد بكري. أهلاً بزعيم ود حامد الجديد» أجلسك على اليمين أو على اليسار. وجابولكْ الشراب. صحيت سمعت عشا البايتات يؤذن لصلاة الفجر بصوت هَزّاك وجدد أشواقك وأحزانك. مشيت بين الظلام والنور، وأنت لا تعلم أنت في أي زمان، أمس ولاّ اليوم ولاّ بكره، ولاّ في أي مكان، هنا ولاّ هناك. لقيت أمة من الناس

اجتمعوا بلا سبب وبلا ميعاد كأنهم كانوا ينتظروك. تذكرت اجتماع الناس عند القبر قبيل المغيب، والناس تحت السيالة الكبيرة وسط البلد وقت الضحى، وتذكرت ضحى أول، قبل ما تولد أو يولد أبوك أوجدك بأجيال وأجيال. كان الناس يجرون مشتتين ها هنا وها هنا، يبحثون عن شيء ولا شيء. وكنت أنت وبندر شاه تمسكان بخيوط الفوضى، وسطها وفوقها. كانت وليمة. بكيت مع الناس والناس بكوا معاك. وكان الواحد الغريب عند الشباك يختفي ويبين. أنا سألت «هل رأيتم الشخص الذي كان هنا؟» بعض الناس قالوا «نعم» وأنت قلت «لا». هل تذكر؟

صمتنا صمتاً طويلاً، وكانت صفحة وجهه مثل سماء يتجمع سحابها ويتفرق ثم يتكوّن من جديد. وقلت انتشله من الغرق، لأنه ابن مريم، فضحكت فضحك هو أيضاً كما توقعت في تلك الظروف والأحوال. قلت له:

«الآن أجيبك على سؤالك. إن وضعي كما ترى، وضع معقد».

كان قد رجع إلى حالته الطبيعية أو كاد. نظر في ساعته ووقف ليمشي. دهشت للشبه بينه وبين محجوب؛ القومة

والقعدة والضحكة وتعبير العينين وحركات اليد. ليس فيه شيء من أمه. جاء يدعوني إلى معسكره. فلم يفلح، ولكن لعله أدرك شيئاً مثلي. قال وهو يتجه نحو الباب:

«أنا أيضاً أجيبك. في ذلك الفجر، رأيت رؤيا، وسمعت صوت ولكن ليس كما وصفت».

❋❋❋

أنزل حسب الرسول، النيّر عن رقبة الثور، قبل طلوع الفجر بمقدار ما تروى ستة أحواض. كان الوقت شتاء في أمشير فيما روى ابنه مختار بعد ذلك بأعوام وأعوام. وكانت على حَجْرة القِيفْ نار من خشب الطلح، تؤنس وحدته وتعطيه بعض الدفء. كان وحده على الساقية يسير وراء ثوره الوحيد «الاقِوْقْ» ثم يجري ليحبس الماء عن حوض امتلأ، ويفتح مجراه في حوض فارغ. كان الرجال قليلين في تلك الأيام. يقول مختار ود حسب الرسول إن أباه أطلق الثور من الساقية وقاده إلى مراحه غير بعيد، ووقف عند النار ينظر إلى ضوئها الشحيح ينعكس على الماء. وبغتة سمع حركة في الماء كأن تمساحاً طفا، ونظر فإذا الضوء المنعكس من النار الموقدة، يتأرجح فوق حَفافي الموج. ونظر ثانية فإذا دُهمة تتجه نحوه. قال حسب الرسول فيما روى ابنه مختار:

«رأيت الدُّهمة تتشَوْبَحْ بين النهر والسماء كأنها ممدَّدة بين النار على الشاطئ وقبس الفجر الباهت تحت خط الأفق. وأحسست بنفسي أضيع وفيما أنا أهوي تذكرت أنني متوضئ لصلاة الصبح وأن وضوئي لم ينتقض. بدأت أطفو وأنا اتشبث بتلابيب القرآن أردد الأسماء بلا وعي حال رجل من الأميين، أشرعتُ أسلحتي، يس، حَاميم، كافْ لامْ ميم، قَافْ صادْ عينْ، وكل اسم يدفعني إلى أعلى حتى عدت إلى قريب في حالتي الأولى وقلبي يتقافز وعرقي يتصبب وحالتي من الكرب والبلاء ما لا يعلمه إلا الله. رأيت الدهمة صارت شيطاناً واحداً بدل جمع شياطين، وقلت الذي كفاني شرهم يكفيني شر هذا كمان. تشجعت وتماسكت وبلعت ريقي وقلت للمارد الواقف في الماء بين الأرض والسماء «السلام على من اتبع الهدى». لم يرد على سلامي ومضى يخوض الماء قاصداً مكاني، فأكثرت من التهليل والتكبير، وبين كل بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، أحس بملك من ملائكة السلام يحل في قلبي، حتى وجدت الذي ضاع من لساني وجناني. سألته وأنا على تلك الحالة، وما بي حاجة إلى سؤال:

«أنت شيطان أم إنسان؟».

فأجابني وهو واقف أمامي، وكأنّ ما بيني وبينه مقدارمائة فرسخ. قال بلغة عربية ولكنة أعجمية:

«شيطان».

كانت مخاوفي قد صارت خوفاً واحدا، وكأن أذنيّ كانتا مغلقتين انفتحتا مرة واحدة،فسمعت حِسّ الموج على الشاطئ كأنه قصف الرعد. قلت له:

«شيطان جايي من وين؟».

أجابني وقد اتضحت فصاحتُه وعجمتُه أكثر «من محل ما تِجي الشياطين».

قلت له:

«الشياطين تَجِي مِنْ وِينْ؟».

فأجاب:

«من بعيد وراء البحر».

قلت له:

«وجيت هنا على شان إيش؟».

قال:

«على شان جوعان».

فجأة انقشع خوفي كما تنقشع الغمامة. قلت في نفسي شيطان جوعان هذا لا يقبله مُخْ بشر. إما أنه شيطان كخْيان، وإما أنه بني آدم مثلي ومثلك. ضحكت وسمعت ضحكتي تسافر إلى الشاطئ التاني وتعود. قلت له وقد عدت حسب الرسول ود مختار، والدنيا في ود حامد فجر قرّب يطلع:

«يا زول. شيطان جوعان؟ عليك أمان الله أنت بني آدم متلي متلك».

كان قد خرج من الماء ورأيته واقفاً أمامي لايغْباني، أبيض اللون، طويل القامة، عيونه خضر آراها على ضوء ناري، لكنه بني آدم مثلي مثلك. قال لي:

«يامغفل. هل الشياطين تحضر على طُوف فوق النيل؟ إنسان، تعبان وجوعان، أيام بلياليها، عيوني ما ذاقت النوم، وبطني ما ذاقت الطعام».

«أهلاً وسهلاً». قلت له، أهلاً وألف مرحبا، بالضيف الغريب الجايي من بلاد الله. وصلت محل عشا

الضيفان، وجمة الفَتْران، وكنت قد عدت كما أنا وأكثر، حسب الرسول ود مختار ولَدْ حسب الرسول الخَمْجَانْ، شكّال الصّريمة، ومخلّص اليتيمة، ناره ما تنطفي وضيفه ما ينكفي، ونحن يعلم الله حالتنا حال، عندنا عنز وحدة ترضّع، وثور وحيد بدون بقرة، ولا حمار ولا سرج، وبيتنا قُطيَّة لسَّع ما بنيناه طين، ومختار ابني طفل رضيع. في البيت شوية دخن لا سمن ولا لحم، زارعين القمح ومنتظرين فرج الله. ميمونة أم مختار، عملت عصيدة دخن بشوية لبن وكنت أنا اتباطأ في الأكل على شان ياكل الضيف. دِيك الأيام ما كنا عرفنا الشاي والبُنْ، نشرب الحلبة باللبن والتمر والسمن، ونحن ما عندنا لا دَا ولا ذَا، الرجل أكل بنهم وأنا حمدت الله بصوت عالي كأني أكلت عجل بحاله لعل الله يملأ باقي بطن الضيف بالبركة. اتكرع لكنه ما حمد الله ولا شكره. نظرت إلى هيئته. الوجه متل الصخر والأنف مثل الصقر. والأسنان زي أسنان الحصان. والعيون خضر تلمع متل الفيروز. جلَّت صنعة الله. وهدومه زي لبس العساكر الأتراك مشرطة ومقطعة ومبلولة وعليها بقع دم. وعنده علبة سألته عنها، قال وهو يضحك:

«فيها الأكسير».

ما طولت معاه الكلام: بعدما أكل وشرب سقته للمسجد وهو في تلك الأيام غرفة واحدة من الطين محوّط بسور من القش. كنا أقارب بيوتنا جَنب جنب. اجتمع الرجال في المسجد وقت الضحى للتعرف على الرجل الغريب وكل واحد أحضر ما يقدر عليه، إل عنده تمر وال عنده لبن وال عنده لوبيا وال عنده عصيدة. عمي محمود كان أحسنّا حالاً دبح دجاجتين. اتغدينا قبل موعد الغداء على شان خاطر الرجل الضيف. بعد الغدا حكيت لهم الحكاية وبدأنا نستفهم عن سره وفحواه. عمي محمود بدأ بالسؤال قال له:

«ما اسمك؟».

أطرق الرجل الغريب مدّة طويلة يفكر. فنظرنا بعضنا إلى بعض حيث أن السؤال لا يحتاج إلى تفكير. بعد زمن قال:

«لا أعلم».

سأله عمي محمود بدهشة عظيمة، وكنا كلنا في دهشة:

«هل يوجد إنسان ما عنده اسم؟».

قال الرجل:

«لا بد كان عندي اسم. بهلول، بهدور، شاه، خَانْ، ميرزا، ميرهان. لا أعلم».

قلت في نفسي أسماء جان ما أنزل الله بها من سلطان، سألته:

«هل أنت مسلم أو نصراني أو يهودي؟».

أطرق مفكراً كالأول، وبعد مدة قال:

«كان عندي دين، لابد. لا أعلم».

سأله عبدالخالق ود حمد بزعل وكان دائماً أسرعنا إلى الغضب:

«يا بني آدم. هل في إنسان ما عنده دين؟ جايز تكون عابد نار أو عابد بقر أو عابد رماد؟ فهمنا».

أنا ضحكت وقلت لهم:

«وهل نحن أثبتنا أنه ابن آدم، مش جايز يكون شيطان؟».

رحمة الله ود الكاشف أيضاً ضحك وقال:

«كل شيء جايز في مثل هادي الأيام».

تبادلنا النظرات، وأنا أشعر أني شخصياً مسؤول عن وجوده. كان الرجل صامتاً لا يحير جواباً. سألته:

«هل تذكر جيت من وين؟».

أجاب على الفور:

«قوقاز، أهواز. خراسان، أذربيجان. سمرقند، طشقند. لا أدري. من مكان بعيد بعيد... كنت تعبان وجوعان وعيان».

تذكرت كيف طلع علي من الماء مثل السحاحير وقلت في سري ما دام قد شبع فلا بد أنه رجع شيطان متل ما كان. رجمة الله ود الكاشف سرق السؤال من طرف لساني. قال للرجل بغضب:

«اسمع يا مخلوق. خلاصة الأمر. فهمنا. انت إنسان أم شيطان؟».

الرجل ما تردد ولا فكر، أجاب على الفور وهو يحدر ود الكاشف بعيونه الخضر نظرة كادت تطير صوابه:

«إنسان. بني آدم مثلكم».

ضحك عمي محمود، وكان أعقلنا وأفهمنا، شيخنا وزعيمنا، وقال:

«الحمد لله ما دمت عرفت إنك إنسان».

مفتاح الخزنة ولد عبدالمولى، كان قاعد بعيد زي عاداته، قريب من الباب بحيث إذا الموضوع أصبح جد يهرب بلا مشقة، لا يسأل ولا ينشد، إذا الناس ضحكوا، وإذا زعلوا

يسكت زح قريب من الراجل وقال له بتردد:

«جنابك ضروري تتذكر شيء. أي شيء... شغّل مخك زين، يمكن الله يفتح عليك».

عبد الخالق قال:

«مفتاح الخزنة حالاً عمل للراجل جناب على شان أبيض وعيونه خضر».

رد عليه مفتاح الخزنة بخوف:

«الرجل من الترك قطع شك. يمكن يكون سنجك أوسردار أو حكمدار. لازم نتدبر وناخذ حذرنا».

ضحك عمي محمود وقال له:

«انت دايماً تهول الأمور يا ود عبدالمولى. نحن هسّع يهمنا اسمه وجنسه ودينه. مركزه ما لينا بيه دعوه».

فجأة الرجل كأنه صحا من غيبوبة أو كأنه شاف شبح. ظهر الخوف على وجهه ووقف على طوله ومد يديه في الهواء مثل كأنه يصد خطر ماشي صوبه، تطاير الشرر من عينيه وبان الغضب والهلع على وجهه وصاح بأعلى صوته (جَانجْ. جانج) ورطن بلغة لم نفهمها، ثم مسك جنبه الأيمن وصرخ صرخة عظيمة من الألم ووقع غمران. ولما كشفنا عليه وجدنا

جرح كبير تحت الضلع مقدار شبر مليان قيح ليه مقدار أسبوعين أو ثلاثة. في الأول حسبناه انتهى، لكن صدره أخذ يصعد وينزل والعرق رشح فوق وجهه. طول الوقت نحن نسأل وننشد والرجل مضروب خطر ونحن ما عندنا علم ولا خبر. قلنا لا بد عسكري من جيش الترك هارب لكن تلك الأيام ما سمعنا بأخبار أي معارك في الصعيد. أحضرنا له سرير في المسجد وقمنا على تمريضه شهر بطوله، نقول صاحبنا يموت اليوم أو باكر. وأكثر إنسان تعب في تمريضه كانت فاطمة بنت عمي جبر الدار. كانت صغيرة إخواتها، مريم أم حاج أحمد، وحليمة أم حمد، وميمونة أم ولدي مختار. كانت صبية دون البلوغ، أقل اخواتها في الجمال، نحيفة زي الجراده، لكنها توزن عشرة رجال، عقلها زي السكين وقلبها متل الحجر. أظنها البنت الوحيدة من قبلي إلى بحري الحافظة القرآن، قرأت مع الأولاد في خلوة حاجْ سعد ترتله بصوت متل هديل القمري. كذاب الولد الّ يقول لك غلبتها في الجري أو العوم أو طلوع التمر، إلى أن أبوها منعها. كانت شيطان مصرّم. ما عندها حياة النسوان، عيونها سود وكبار ماليات الوجه كله حين تنظر لها ترد النظرة لحد ما

أنت الراجل تغض طرفك. الله الله. كانت تركب الحمار مفشخة زي الراجل، تزرع وتحرث كأنها راجل. أبوها دايماً يقول «الله سبحانه وتعالى أعطاني أربع بنات، حليمة ومريم وميمونة والله لينا ـ الله لينا هو ولده رجب سار عليه لقب الله لينا بسبب خوفه ـ وأنعم علي بولد واحد هو فاطمة». تعبت غاية التعب في علاج الرجل الغريب. كنا نضحك معاها نقول لها «الراجل دا يمكن عفريت ما هو بني آدم. إذا خطفك أو خسف بيك الأرض أو عمل لك مصيبة» تقول لنا «إذا كان هو شيطان فأنا إبليس ذاته كبير الشياطين». جلت قدرة الله الرجل كأنه فعلاً ما هو بني آدم. المرضه الْ مرضها تقتل التور. بعد شهر فتح عيونه ونحن مجتمعين في المسجد وقت الضحى، نظر لنا ساعة زمان وقال:

«من أنتم؟».

عبدالخالق ود حمد ضحك وقال:

«نحن الجان الكانْ مع الملك سليمان».

الرجل اتلفت يمين وشمال وقال:

«أين هذا المكان؟».

ود حمد قال له:

«هذا المكان جهنم الحَمراء».

نظر الرجل فوق وتحت كأنه عاوز يتذكر وقال:

«ماذا جاء بي إلى هنا؟».

ود حمد قال له:

«جابك الطير الأبابيل».

الرجل هَبّ واقف على طوله ونحن ساكتين نعَاينْ له. نظر في وجوهنا وأتقدم لي قِدّامْ واتأخر لي وراء وجلس فوق العنقريب، ثم وقف وتفرس في أصابع يديه ورجليه وفحص ثوب الدمور الْ لبسنا اياه، وبعدين جلس على السرير وسكت برهة وقال:

«أنا مَن أكون من أنا؟».

كلنا ضحكنا دِيك الساعة وعمي محمود قال له:

«انت تكون منو، هدا هو السؤال».

وبالفعل وجدناه نسي كل شيء، خروجه من النيل، وعصيدة الدُّخن ال أكلها في بيتنا وجلستنا معاه في المسجد. شيء عجيب. كأن الرجل اتولد من جديد داك الضحى في الجامع. قبل داك لا يذكر شيء. تحيَّرنا في أمره وضربنا أخماس في أسداس وبعدين سألناه إذا كان في وجهة

يريد أن يقصدها، فأجاب إنه لايعلم وجهة يقصد إليها. تفاكرنا في أمره كيف العمل؟ هل نلقيه في النيل من حيث جاء؟ هل نمسّكه الدرب ونقول له سلام عليكم؟ لكن الشفقة في قلوبنا تغلبت على الحذر ونحن قوم على ما بنا من ضيق الحال لا نرد من طلبنا ولا نخيب سؤال من سألنا. عمي محمود قال له:

«يا عبدالله. نحن كما ترى نعيش تحت ستر المهيمن الديّان. حياتنا كد وشظف لكن قلوبنا عامرة بالرضى قابلين بقسمتنا ال قسمها الله لنا. نصلي فروضنا ونحفظ عروضنا متحزمين ومُتَلزِّمين على نوايب الزمان وصروف القدر. الكثير لا يبطرنا والقليل لا يقلقنا، حياتنا طريقها مرسوم ومعلوم من المهد إلى اللحد. القليل ال عندنا عملنا بسواعدنا ما تعدينا على حقوق إنسان ولا أكلنا ربا ولا سُحْت. ناس سلام وقت السلام وناس غضب وقت الغضب. ال ما يعرفنا يظن اننا ضعاف اذا نفخنا الهواء يرمينا، لكننا في الحقيقة مثل شجر الحراز النابت في الحقول. وانت يا عبدالله جيتنا من حيث لا ندري، كقضاء الله وقدره القاك الموج على أبوابنا، ما نعلم انت مين وقاصد وين. طالب خير أو طالب شر. مهما كان

نحن قبلناك بين ظهرانينا زي ما نقبل الحر والبرد والموت والحياة. تقيم معنا لك ما لنا وعليك ما علينا إذا كنت خير تجد عندنا كل خير وإذا كنت شر فالله حسبنا ونعم الوكيل».

دمعت عينا الرجل وأخذ يردد:

«نعم. نعم. نعم.».

ونحن أيضاً بلغ بنا التأثر غايته لكلام عمي محمود في شرح حالنا وأحوالنا كأنه يقرأ من كتاب في صفحة الغيب. بعد دَاك قلنا نعطيه إسم، فالرجل بلا اسم، وتركنا الخَيْرة لعمي محمود، وكأن الاسم كان حاضر ينتظر صاحبه. قال عمي محمود فوراً:

«ضَوّ البيت. اسم مبارك. ولعل الرجل حل عندنا على هذه الحالة بالخير والبركة».

كلنا وافقنا وقلنا على بركة الله «ضو البيت»، وكلنا سألناه ضاحكين إسمك مين فيرد بسرور «ضو البيت».

جُلّت قدرة الله، لحظة ما نَطَق الاسم أصبح شيء حقيقي كأنه كان كذلك منذ البدء. ونظرنا إلى صاحبنا فإذا هو فعلاً «ضو البيت» ليس جبر الدار ولا مفتاح الخزنة ولا عبدالمولى ولا عبدالخالق، ولكن «ضو البيت» وكأن الاسم

كان موجوداً منذ الأزل أمانة عندنا ينتظر صاحبه الذي جاء يسعى من وراء البحر ووراء الغيب ليستلم أمانته. سبحان ربي. نظرت أنا إلى صاحبي وتذكرت لقائي إياه قبل شهر فقط بين النور والظلام وكأنه مارد تمدد بين الأرض والسماء، فإذا هو ليس كذلك أبداً. تقلّص صُوَيحبي وصغر، وأصبح «ضو البيت»، الغريب المسكين، ابن آدم، يأكل ويشرب، يضحك ويبكي، يولد ويموت، ابن آدم مثلي مثلك. تذكرت خوفي ذاك الفجر، ونظرت إلى صويحبي وضحكت. جلت قدرة الله.

جينا بعد داك لموضوع الدِّين، عمّي محمود قال له «يا ضو البيت. نحن ناس مسلمين. لكن ما عندنا تشدُّد في موضوع الدين كلُّ نفسٍ بما كسبت، والله مُخَيِّر في عباده. ولو كنا نعلم لك ملّة لتركناك على ملّتك. أما وإنك لا تعرف أنت من أي دين فإيه رأيك ندخلك معانا ملة الإسلام، نحن نكسب ثواب وإنت تنجو من غضب الله، ويسهَل عليك التعامل مع ناس البلد إذا حَبِّيت تستقر من ناحية الزواج والصهر».

ضو البيت قبل على الفور، فلقّنه عمّي محمود الشهادتين فرددها بصوت واضح، جعل قلوبنا تخفق وعيوننا تدمع، وخصوصاً مفتاح الخزنة الذي اعترته حالة من العشق

أثرت علينا كلنا وأخذ يردد «أشهد ألاّ إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» مراراً وتكراراً كأنه هو الذي دخل الإسلام وليس الرجل الغريب. لكن الحقيقة، اعترتنا جميعاً حالة عجيبة في داك الضحى في المسجد، كأننا نشاهد معجزة. وتأكد لدينا أن موج النيل لفظ «ضو البيت» على شاطئ ود حامد ليكون بشيراً لنا بالخير والبركة. عبد الخالق ود حمد هو الذي أخرجنا من تلك الحالة ارتفع صوته والناس بين مهلل ومكبر، وباكي ودامع وقال:

«يا جماعة صلوا على النبي. نحن عاملين احتفال مولد، مُش نتأكد أول الراجل أغلف ولاّ مطهر» كشفنا على ضو البيت فوجدناه ويا للخسارة، أغلف. لكن فرحنا بدخوله الاسلام ما نقص، وعقدنا العزم أن نعمل له خِتان باحتفال كبير وطَبْل وزمر وغناء ومديح بعد موسم حصاد القمح، وأصله داك الموسم ما كان في طهور أو عرس، وقلنا يكون احتفال ماحصل مثله في البلد من قبل، لأن ود حامد كلها إسلام منذ خلقها الله وعُمْرنا ما شُفنا إنسان يدخل ملة الإسلام من أول وجديد. وكذلك نحن نفرح ونتبسط، نغني ونرقص ونأكل ونشرب، ويكون الاحتفال مجموعة احتفالات، سِمايَه وطهوره وشَرَافَه.

شاءت قدرة الله أن يكون الاحتفال كذلك، ويكون احتفال عرس أيضاً، لأن ضو البيت في التو والحين دخل في حياتنا كأنه واحد منا. كل واحد منا عرض عليه يشتغل معاه في حقله، لكنه أبى وقال تعطوني قطعة أرض اشتغل فيها وحدي فأنا رجل غريب، وما أحب أدخل مع أهل البلد في مشاكل بسبب الشُغل. عمي محمود قال والله ضو البيت إنسان عاقل، وكان عنده قطعة أرض متروكة بُور منذ الأزل مقدار نصف فدان، قال له قطعة الأرض دي إنتاجها صعب لكن إذا حبيتها وهبتُها لكْ. قبِل ضو البيت الهبة وبدأ العمل فوراً، كل واحد فينا ساعده قدر ما يستطيع، وكان هو أحضر معاه بذرة «التُمباك» في العلبة إل طلع بيها من النيل، يقول عليها الإكسير. جلّت قدرة الله، اشتغل كأنه شيطان من نسل إبليس، لا يفتر ولا يكل طول الليل والنهار لا تجده أبداً قاعد أو راقد، دائما واقف على طوله أو منحني فوق المعول والطُوريَّة وكأن إيده فيها سحر. زرع الطماطم والبصل والبامية والقمح والشعير واللوبيا، ما ترك شيء. بعد ثلاثة شهور حصد القمح مثلنا مثله مع أننا سبقناه في الزراعة بمقدار شهر. وكنت أنا كل ما أشوفه شغّال في عز النهار والناس مرتاحين وقت

القيلولة أو بالليل والبرد متل السكاكين، أنظر وأتعجب وأقول يا ترى إنسان في صورة شيطان أو شيطان على هيئة إنسان.

ونحن نستعد للاحتفال كما ذكرت، ضو البيت طلع علينا بموضوع الزواج. كنا كلنا مجتمعين في المسجد بعد صلاة الجمعة حين فاتحنا في الأمر. قال:

«يا جماعة. انتم صنعتم فيّ جميل لا أنساه مدى الحياة ولا داعي للكلام فكل شيء معروف ومفهوم. وأنا هالساعة بحمد الله واحد منكم كأني وجدت معاكم من قديم. خلاصة الأمر أريد منكم جَمِيل أكبر من كل إل فات. أريد منكم الصهر والرحم على سنة الله ورسوله».

سكتنا كأن على رؤوسنا الطير، وكان كل واحد فينا يفكر ذات الأفكار. أخونا في الإسلام ويحضر معنا الصلوات الخمس، أي نعم. ونحن سمّيناه وأشركناه زراعتنا وشقانا، أي نعم. وهو يعمل عمل جيش من البشر، أي نعم. وهو في إقامته القصيرة عندنا، كسب مودتنا كأنه موجود معنا من قديم، أي نعم. أما أن نزوجه ابنتنا ونحن لا نعلم عنه لا قليل ولا كتير، وهو عيونه خضر ونحن عيوننا سود، وهو وجهه أبيض مثل القطن ونحن وجوهنا مثل الجلود المدبوغة، وهو خرج

من الماء ونحن خرجنا من الطين، وهو مسلم منذ ستة أشهر ونحن مسلمون منذ الأزل، ونحن حياتنا تبدأ وتنتهي بين النيل تحتْ، والصحراء فوق، وهو حياته ما ندري كيف بدأت وكيف تنتهي، وهو اسمه ظهر مع ظهوره، ونحن أسماءنا مسلسلة أباً عن جد مثل البنيان المرصوص إسم فوق اسم إلى آدم. لاحول ولا قوة إلا بالله.

بعد مدة، عمي محمود رفع رأسه وأدار عينيه فينا، ينظر إلينا واحد واحد كأنه يقرأ أفكارنا كان رجل عظيم، رحمه الله رحمة واسعة، من السلف الصالح الذين لن يجود الدهر بمثلهم أبداً. لمّا عيونه قابلت عيون عمي جبر الدار، ابن عمه، تمهل مدة ينظر له، لحدّ ما جبر الدار غضَّ طرفه وأشاح وجهه. إني آمنت بالله، والناس صامتة صُنْ، كل واحد مع نفسه جُوَّه جوَّه. وأنا ذاتي لقيت نفسي في هم شديد، والحق لله اني في تيك اللحظة ندمت أشد الندم على أنني طلَّعت ضو السّجم من النيل،وقلت في سري يا ليتني تركته يمشي في حال سبيله. نظرت إلى عمي جبر الدار وهو منكِّس رأسه وحَسِّيت بالأسف والحسرة على ما سيصير. لكن عمي محمود حسم الأمر وقطع الشك. أدار وجهه في وجوهنا ثم قال:

«نحن لما آخينا ضو البيت هنا في هذا المكان، وقلنا له ليك ما لنا وعليك ما علينا، كنا نتكلم كلام رجال. مو كلام وليدات، كلام جَد ماهو هِزار. الخُوَّة واحدة مو اتنين، والدين واحد ما هو اتنين. لا يوجد دين للحياة ودين للموت، وصداقة في الشغل وفي الزواج لا. ضو البيت أصبح زيّنا ومتلنا على الخير والشر في الحارة والباردة. وما دام طلب مصاهرتنا على سنة الله ورسوله فأهلاً وسهلاً بيه ومرحبا به مرحبتين. أنا لو كان عندي بنت كنت زوّجته إياها عن طيب خاطر».

صَمْت، إني آمنت بالله، كأنك تسمع جريان الدم في العُروق، وأنا اعترتني حالة من الحَيرة عقلي يحضر ويغيب، لا أعلم هل الحاصل في المسجد داك اليوم خِير أم شر. أمورنا كانت ماشية في خط مرسوم، ثم من حيث لا ندري لقينا أنفسنا في سكة ما نعلم تودي على وين. ونظرت إلى عمي جبر الدار وهو عابس مكفهر كأن الكلام يخصه هو دون الناس. وفجأة مفتاح الخزنة هتف بعالي الصوت «الله أكبر. الله أكبر» وضو البيت، الغريب، أجهش بالبكاء، إني آمنت بالله مثل الأم ال ثكلت ابنها الوحيد. انضم اليه مفتاح الخزنة وكان دايماً دمعته على طرف عينه، مرات يهتف «الله أكبر» ومرات ينادي

«ابشروا بالخير». ثم تمساح ود حسن، وود بخيت، وود سليمان، وود الكاشف، وود حمد، وأخيراً جبر الدّار هو الآخر انضم إلى زمرة الباكين. لقينا شيء وضاع مننا شيء داك النهار. ونحن ما ندري البكاء لأيش وعلى إيش، على ال لقيناه أو على الذي ضاع. عمي محمود كان رجل دمعه عسير لكن عيونه رقرقت، وأنا محتار بين الحزن والسرور، أقول يا سبحان الله، هل هذا مأتم أم عرس. فاض بنا الشوق وتملكنا الوجد كأننا في حلقة ذكر، وضو البيت، الرجل الغريب، جالس وسط المكان ليه علاقة بكل ما جرى ودار، ومفتاح الخزنة ينادي بعالي الصوت «ابشروا بالخير. ابشروا بالخير».

***

استيقظت البلد مبكرة على حس الزغاريد في بيت محمود وبيت ابن عمه وصهره جبر الدار، وكان الرجال قد صلوا الفجر جماعة ولبثوا ينتظرون عند الشروق ذبح العجل في فناء المسجد، وساق محمود «ضو البيت» من ذراعه وعدّاه، فوق العجل الذبيح، ومفتاح الخزنة يهتف «ابشروا بالخير، ابشروا بالخير». كان ضو البيت يومذاك كملك وسط الرعية، لابساً قفطاناً أخضر من الحرير، وطاقية حمراء، وعمة

كبيرة بيضاء، متلفعاً بشال مزركش الأطراف، وحذاؤه الأحمر يلمع في الضوء، ينظر الناس إلى هيئته ويضحكون فرحين، فقد كان منهم من يلبس خرقة حول وسطه، والمتّسخ الثياب، والممزق الثياب. كذلك ضحكوا مسرورين حين جدّد «ضو البيت» إسلامه، وتلا آيات من صورة «الضحى» علمته إياها فاطمة بنت جبر الدار، يجعل الضّاد دالاً والجيم، وهلّلوا وكبروا. ثم وقف عبدالخالق ود حمد وقال «بسم الله الرحمن الرحيم» وبحوله وقوته سمّينا هذا المولود «ضو البيت»، كما هي عاداتهم حين يسمون الطفل، فضحك ضو البيت كأنه طفل، وضحكوا كلهم مسرورين. وكأن الطفل ولد عند الشروق، واستوى غلاماً للخِتان في الضحى. أجلسوه على قدح الحَرَاز الكبير المنكفئ، محمود يمسك بيمينه، وعبد الخالق بيساره. شحذ رحمة الله ود الكاشف سكينه، وفي لحظة كان الدم قد سال، وقضي الأمر، ومفتاح الخزنة يهز ويبشّر، والرجال يضحكون سروراً وعجباً كما لم يضحكوا من قبل. وسمعت النسوة جلبة الرجال وهن في أكواخ الطّين والقش المتناثر حول المسجد، فنادين بالزغاريد.

وكأن الطفل ولد عند الشروق، وتم ختانه وقت الضحى

وصار للزواج بعد صلاة العصر. كان عقداً مشهوداً حضره جِيرةُ ود حامد كلهم، من الضفة الأخرى، ومن القرى المنثورة على الضفتين. كان الناس قليلين في ذلك العهد، يسكنون في قرى متباعدة، تبدو أضواؤها الخافتة بالليل كأنها معلقة في السماء، وتتناهى الأصوات من شاطئ إلى شاطئ ضعيفة لا تميزها الأذن. ولكنهم كانوا يعلمون ما يجري عبر النهر كأن بين الضفتين جسوراً غير مرئية. يعلمون من سقى زرعه بالليل ومن سقى بالنهار، من مَرِضَ ومن وُلِد ومن مات ومن تزوج، ومن الذي باع ومن الذي اشترى. وكانت تربطهم بعضُهم ببعض أواصر وقرابات وأنساب، وتجمعهم الأسواق والمعاملات، يتبادلون بذور «التِّيرابْ» وشتْل النخل وفحول البقر والحمير، ويجمع بينهم المدّاحون والمغنون وحَفَظَةُ القرآن، هكذا حالهم من مُلتقى النهرين إلى ما وراء حدود مصر. لذلك لم يكن عجيباً أنهم تسامعوا بنبأ الاحتفال الكبير في ود حامد، فجاؤوا من قبلي ومن بحري، من السّافل والصعيد، بالمراكب عبر النيل، وبالحمير وسيراً على الأقدام، يحملون هداياهم، تمر وقمح وشعير ولوبيا وبصل وسمن ودُهْن، كل حسب طاقته، هذا يحمل ديكاً

وهذا يحمل حملاً أو عَتودا[1]، يجيئون مشتَّتين مثل رذاذ الغيث، ثم ما يلبثون أن يتكاثفوا ويتلاحموا في خضم عظيم يجيش ويزخر بحياة جديدة أرحب من حصيلة أجزائه. وكان «ضو البيت» هو قطب الرحى في ذلك اليوم، عز الصيف. تصل المرأة طرف الحي وعرقها يتصبب لأنها قامت من أهلها مع طلوع الشمس ووصلت والشمس في كبد السماء، فتسمع أصوات السرور وتشم روائح الوليمة، وتسري إليها عدوى الطمأنينة من الجمع الغفير الذي غرز بَيْرق الحياة وسط ذلك العدم فتزغرد من بعيد، فرحاً بوجودها بادئ ذي بَدء، ثم اعلاناً للملأ أنها أيضاً هُنا الآن، ولها في لهاتها صوت يعرب عن ذلك كله. وما يلبث صوتها أن يندمج في بقية الأصوات، فيضيف إليها نَغمة، لا تميزها الأذن أول وهلة، ولكن الذي يرهف السمع يدرك أنها موجودة، وأن صوتَ الجميع لا يكون جميعاً دونها. يصلون واحداً واحداً، واثنين اثنين، ضعافاً هزالاً، كل ظهر قد تقوس، وكل كاهل قد ناء بأعباء الحياة والموت، فيتلقفهم الجمع الكبير، فإذا كل واحد قد

(١) الحمل الوضيع.

صار ذاته وأكثر. اليوم، سوف يجهل العاقل ويسكر المصلي ويرقص الوقور. وينظر الرجل إلى زوجته في حلقة الرقص فكأنه يراها لأول مرة، لا بأس عليهم لأنهم يؤكدون أسباب الحياة وسط كل ذلك العدم. وبين الحين والحين تجيء كوكبة منهم يتسابقون على الحمير في عَثار وغبار، فكأنهم إعصار نفثته الصحراء، لا يموت، ولكنه يدخل الزحمة فتغلي وتمور. يجيئون مثل حبات القمح في كوم القمح، كل حبة قائمة بذاتها وكل حبة تنطوي على سر عظيم. وأحياناً يصل رجل على حمار له سرج ولجام، حسن الهيئة حسن الهندام، فيعلن الحمار عن قدوم صاحبه. يجيئون فقراء كلهم بدرجات متفاوتة، فيحتويهم فلك منتظم حول مركزه يدور بقدر معلوم. يجيئون ضعفاء فيعودون أقوياء، ومساكين فيعودون أغنياء، وضالين فيجدون الهدى. اليوم، سوف تتلاحم الأجزاء، فيصبح كل واحدٍ أحداً.

لاعجب إذن أن تلك العدوى سرت في روح جبر الدار، فأنسته الآن في عز الصيف، تلك المرارة التي اعترته قبل أكثر من عام في عز الشتاء. الزمان الآن صفو، والحياة بخير، والبدر في تمامه، والأصوات متناسقة متماسكة تقول

لك إن الموت معنى من معاني الحياة، لا أكثر. قام في الناس خطيباً بعد العقد، وقال إنهم جميعاً يعلمون أن فاطمة ابنته، عنده بمكان السمع والبصر. وتشاء قدرة الله عز وجل أن ينالها «ضو البيت» دون سائر الناس. قال إنه لم يكن راضياً أول الأمر، ولكنه اليوم أسعد الناس....

في ذلك اليوم في أمشير، قام جبر الدار من المسجد حزيناً مهموماً. صلى العشاء وحده في داره، وجاءت ابنته فاطمة وقرأت له القرآن كعادتها كل ليلة. لم تكن الآيات محزنة، ولكنها جدّدت همومه وأحزانه. سألها وهو على تلك الحالة عن رأيها في ضو البيت، فأجابته:

«زين ما عنده عَوجَة».

قال لها برفق:

«أراك تحادثينه كثيراً في الحقل».

قالت:

«أعلمه القراءة والكتابة وأحفظه القرآن».

قال:

«لعله يتعلم زين».

قالت:

«يحفظ حالاً كأنه يتذكر أشياء كان يعرفها من زمان».

سألها:

«هل يذكر شيئاً من ماضيه؟».

فأجابت:

«تجيه أطياف ذكريات. ذكريات معارك وحروب في الغالب. يتكلم عن الطعن والضرب والمدافع والبارود. يعرق ويجف وتصيبه رَجْفة. يكاد يغمر. يرجع لحالته هو يضحك وأنا أضحك».

قام جبر الدار من فروة صلاته وجلس على «العنقريب» وأجلسها جنبه وأحاطها بذراعه. قالت بحزن:

«مرات كأنه يتذكر أُمه. يقول كلمات مثل ماما، آما. عيونه تدمع. يرطن بلغة غريبة. أسأله لما يفيق يقول لا أذكر. مسكين».

أطرق جبر الدار زمناً ويده تداعب خد ابنته بحنو عظيم. فجأة سألها:

«إذا طلبك للزواج، تقبلين به؟»

سكتت قليلاً، ثم ضحكت ولم تجب.

حكى لها حينئذ ما جرى في المسجد، ثم قال:

«محمود كان يتكلم وينظر إليّ كأن الكلام يعنيني أنا دون سائر الناس. ، أنا ما عندي بنت للزواج غيرك. إذا قلت لا أو نعم الأمر في يدك».

وبينما هما كذلك، إذا بمحمود يدخل عليهما. حيّى وجلس، ثم قال موجهاً كلامه للبنت، متجاهلاً الأب:

«يا فاطمة، ضو البيت طالب الزواج. فاتّحنا في الأمر بعد الصلاة. بعدما الناس خرجوا سألته إذا كان في باله شخص معيَّن. قال أريد فاطمة بنت جبر الدار. هل تقبلينه؟».

لم تتردد،ولم تفكر. قالت فوراً بصوت خفيض، ولكنه حاسم واضح:

«نعم».

تذكر جبر الدار ذلك وهو واقف يخطب في فناء المسجد بعد العقد. قال إنه لم يكن راضياً أول الأمر ولكنه اليوم أسعد الناس، وأنه تنازل عن كل شيء، لا يطلب لابنته صداقاً مقدماً ولا مؤخرا.

تصايح الناس «ابشروا بالخير، ابشروا بالخير» وهزوا بأيديهم ولوّحوا بعصيهم، وتصافحوا وتعانقوا، وماجت الزغاريد وتفجرت وتجاوبت في جنبات المسجد وما حوله.

حملتها رياح الصيف ودارت بها في الساحات والدروب والحقول، وفوق قمم النخل والطلح والسنط والحراز والسيّال والحلفاء والطرفاء والعُشَر، وعبر النيل. وعادت الأصداء مجسمة من أطراف البلد إلى منبعها حيث الطبول تئز وتهدر، والناس حلقات حلقات حول الراقصات والمغنين والمداحين. ثم غربت الشمس، وتربع البدر على عرشه، وراق الجو وطاب، وصفا الزمان، وتم السرور والحبور، وضوّأت نيران الحي، وازدحمت حلقة الرقص عند شجرة السيال الكبيرة وسط البلد. تفجرت أصوات الفرح العظيم من تحت أرجل العارضين ومن بين أكف المصفقين ومن حلوق المغنيات والمغنين، من الطبول والطنابير، من أسقف البيوت ومن بين فرجات الأكواخ، من الحيشان والساحات والدروب ومرابط البهائم. الليلة كل شيخ صب، وكل شاب عاشق، وكل امرأة أنثى، وكل رجل أبو زيد الهلالي. الليلة كل شيء حي. فاح العبير وتم السرور وشعشع الضوء ولاذت جيوش الكدر بالفرار. كل غصن تثنى وكل نهد ارتعش، وكل كفل ترجرج، وكل طرف كحيل، وكل خد أسيل، وكل فم عسل، وكل خصر نحيل، وكل فعل جميل، وكل الناس «ضو البيت».

كان واقفاً في قلب الدائرة يهز فوق الراقصات بسوط من جلد عجل البحر، ويتقافز الرجال في الحلقة للمبارزة فيضربهم كيفما شاء. دخل الحلقة عبدالخالق ود حمد، الفارس المغوار، وعرَّى ظهره وركز للضرب. وفي التو برز له حسب الرسول ود مختار. نِدُّه وصِنوه، فأخذ ضو البيت يلوح بالسوط وينزله مرة على ظهر عبدالخالق ومرة على ظهر حسب الرسول ومع وقع كل سوط تزغرد النساء ويتصايح الرجال، ويقوى هدير الطبول، وتتفرق الضوضاء وتتجمَّع حول «ضو البيت»، وهو واقف في مركز الفوضى، شاهراً سوطه فوق الجميع، يختفي ويبين وسط الزحام، فكأنه هنا وليس هنا.

مضى كالحلم وكأنه ما كان، لكنه ترك ابنه عيسى، الذي سار عليه فيما بعد اسم «بندرشاه»، ولد بعد موته بثلاثة أشهر، وجهه أسود مثل أمه، وعيونه خضر مثل أبيه، وهو في الناس نسيج وحده لا يشبه دا ولا دا.

قال عبدالخالق ود حمد كما روى ابنه حمد ولد حليمة بعد ذلك بأعوام وأعوام:

«كنت أنا وعمي محمد وحسب الرسول وضو البيت على الشاطئ نفك حطب الساقية ونرفعه، والدنيا فيضان والنهر

طامي ينذر بالخطر يرتفع كأنه يخطو، تحس مَدّه كل لحظة. كانت الشمس قد غربت لتوها وحولت النهر إلى بحر من الدم. كنا نحن الثلاثة تحت، وضو البيت فوق على حجرة القيف نناوله الحطب فيسحبه إلى برّ الأمان، بغتة انهار ما تحت أرجلنا نحن الثلاثة ولا ندري إلا ونحن في عرض النهر نصارع الموج، في لحظات تشتتنا ذات اليمين وذات اليسار. كنت أنا وعمي محمود تماسيح نيل، أما حسب الرسول فقد كان فارس بر، لا يقوى عليه أحد في الجري والمصارعة والقشاط والصفقة والعرضة، وفي النهر لا حول له ولا قوة. رأيناه من بعيد يغطس ويقلع، فأخذنا نقاوم التيار لنصل إليه، ولافائدة، فقد كان التيار جبار وغلاب يدفعنا تدفيعاً، مددت له يدي ومد يده نحوي، ولا فائدة، وكان عمي محمود يلف ويدور في الماء كالتمساح المسعور يحاول أن يجد ثغرة في خضم الماء لينفذ إلى حسب الرسول، لمحته في حمرة الشفق وكأنه وطّن نفسه على الموت، وسمعته ينادي: «انجوا بأنفسكم وإلا ضعنا كلنا، استودعكم الله. خلوا بالكم على ميمونة ومختار والوليدات، مع السلامة. مع السلامة».

ونحن على تلك الحال رأيت ضو البيت يضرب في اليم

متجهاً صوبناً وكان عمي محمود قد ضاع لا أرى له أثراً، وأنا أغطس وأطفو والموج يصفعني في وجهي كقضاء الله وقدره. وأنا أهوي في القاع رأيت ضو البيت وكأنه معلَّق بخيوط الشمس الغاربة، رافعاً بذراعيه حسب الرسول فوق في حمرة الشفق. ثم رأيت النخل والشجر على الشاطئين كأنه يغوص معي وتلون الكون كله بلون الدم بعد ذلك لا أذكر أي شيء إلا أنني وجدت نفسي على الشاطئ في زحمة الناس وأصوات تتصارع وأشباح تقفز هنا وها هنا، نظرت فإذا حسب الرسول راقد كالميت وسمعت صوت عمي محمود ينادي «ضو البيت، ضو البيت». قام حسب الرسول بغتة وأخذ يجري وينظر في وجوه الناس وينادي «ضو البيت، ضو البيت» بعد ذلك هاج الناس وماجوا، بعضنا نزل الماء وبعضنا جرى على امتداد الشاطئ، وضوت المشاعل على الضفتين، ونادى الناس من مكان إلى مكان ومن شاطئ إلى شاطئ إلى أن صارت الدنيا كلها تنادي في جوف الظلام «ضو البيت».

انتظرنا يوماً بعد يوم، بين اليأس والرجاء، نقول لعل وعسى ولكن ضو البيت اختفى، لاخبر ولا أثر، ذهب من حيث أتى، من الماء إلى الماء، ومن الظلام إلى الظلام، وحسب

الرسول يبكي ويقول «غير معقول، غير معقول».

حزنّا عليه كأننا فقدنا نعمة السمع والبصر لأنه عاش بيننا مثل الطيف ومضى مثل الحلم، عشرة مواسم لا غير، خمسة أعوام بحساب السنين، عمل فيها ما لا يعمله الناس في العمر كله. خير الدنيا انهمر عليه كأنه يقول للشيء كُن فيكون. كان يزرع محاصيل الشتاء في الصيف والشتاء، يعمل على مدار العام لا يكل ولا يفتر. جلب شتل النخل أشكال وألوان من ديار المَحْس لحد بلاد الرُّبا طلب، وعلّم الأرض تنبت التنباك، وعلمنا زراعة البرتقال والموز. نحن بين الموسم والموسم نرتاح، وهو يسافر مع قوافل الجمال، مرة إلى ديار الكبابيش، ومرة إلى بَربَر وسواكن، وأحياناً إلى غاية حدود مصر، ويرجع محمل بالثياب والعطور وألوان من الأواني والمآكل والمشارب ما عرفناها في ود حامد من قبل. هو يكبر ونحن معاه نكبر، كأن المولى جل وعلا، أرسله إلينا ليحرّك حياتنا ويمضي في حال سبيله. بنينا بيوت الجالوص بدَل القش، ال كان عنده غرفة عمل ثلاثة، وال ما عنده حوش عمل حوش. الجامع بنيناه من جديد ووسّعناه وفرشناه بالسجاد والبساط هدية من «ضو البيت». وهو بنى فوق القلعة

بيت داخل بيت وديوان ورا ديوان، وحوش في بطن حوش، سبحان الله، تراها من بعيد كأنها مدينة بحالها، بعدما كانت الأرض خراب مهجورة طرف البلد. فاطمة بنت جبر الدار بكت عليه الدموع الغزار بكاء الناقة على الفصيل.

كنا نتذاكر ماذا حصل عند المغيب ذاك اليوم. عمي محمود قال إنه يذكر أنه لمح ضو البيت كأنه معلق بين السماء والأرض يحيط به وهج أخضر. بعد ذلك لا يذكر إلا أنه وجد نفسه على الشاطئ كأنه يستيقظ من حلم، والناس يتصايحون ويجرون مشتتين ها هنا وها هنا. وقال حسب الرسول إنه يذكر وهو بين الموت والحياة أنه رأى ضو البيت وكأنه في قلب الشفق الأحمر، يبتعد ويبتعد، وفجأة امتدت يد مارد من حمرة الشفق وانتزعته وحذفت به فإذا هو على الشاطئ. استيقظ فإذا العالم ظلام والدنيا تصرخ «ضو البيت».

تدمع عينا حسب الرسول ويقول «رحم الله ضو البيت. دفع بروحه تمن العصيدة ال أكلها معنا أول يوم. مضى كالحلم. وكأنه ما كان، لولا ابنه عيسى الذي ولد بعد موته بثلاثة أشهر. ننظر إلى وجهه فلا نرى ضو البيت. وننظر إلى عينيه، فإذا هو ضو البيت، الخالق الناطق».